لا أدري

أحمد محمد إبراهيم



رواية

رواية: لا أدري.

تصميم الغلاف: الفنانة عالية النعيمي.

رقم النشر الدولي -0-9212-9933-S987 ISBN 0

الحقوق كافة محفوظة للكاتب

الكاتب: أحمد محمد إبراهيم.

البريد الالكتروني: ae3593588@gmail.com

في العمل حكاية حبٍ تتحد فيها الأرض والسماء والمدن والدماء، وشهرزاد هنا قد تروي لكنها تروي عن شهريار، وليس له، متعرضةً لأسباب وجود المنبت الخصب للفكر المتشدد والغريب عنا وعن منطقتنا وعن ديننا السمح الذي أعزنا الله وكرمنا به.

العشق الإمبراطوري

(ليس حبا أن تقول ما تشعر ولكن الحب أن تشعر بما تقول)

بين دمشق ودبي ٢٠١١

ما أجمل سحرك أيها الخريف؟ ما أجمل نضجك السابق لمراهقة الطبيعة في الشتاء! لكل شيء طريقته التي يعبر بها عن مشاعره، لكن النتيجة غالباً ما تنتهي متشابهة ومتقاربة حتى الطبيعة تمارس السحر في حبها بطريقة تناسبها قد لا نقر بطريقتها لكن هذا لا ينفي أنها تعشق الحب تماما مثلنا أو أكثر، نحن بني البشر نعتقد زيفا أن الحب هو ما نعرفه والحقيقة أن أكثر ما عرفناه، ليس إلا وهم وضعف تقاربت الأجساد من بعضها باسم الحب لتخفيه، فهل نجحنا؟ الريح تصفر من ارتعاشات اللذة وتسقط من عليائها لتعري الأوراق كاشفة عن جسد شجري جميل، منتظرا أن يستحم بما نسميه الشتاء، ليقدم الجسد للبرد رقصة مع الموت ستخرج في الربيع غناء مع الحياة.

جلست بعد أيام طويلة من البحث عن أخبار شخص حبيب باعدتني الخطوب عنه وقربتني اللهفة دائما إليه! أستذكر السنين الماضية الحافلة بإنجازات الملل أو العمل إن شئتم! ها قد بلغت

الخمسين، وبلحظة حوار مع النفس ومكاشفة مع الروح أجد أني ما حققت شيئا أرضاني، لا المقعد السياسي في الحكومة ولا المقاومة ضد الاحتلال الأمريكي للعراق ولا رواياتي ولا حتى رسومي!

كل ما كان بوحي من جرح حب ما فارقني يوما ولا هادنني أبدا! لا نجحت في الدفاع عنه لفقري الشديد ولضعف شخصية المحبوبة ولظلم أبوي باركته قبعات الدجالين باسم الدين بعد أن أرضاهم بالمال (الإله) الذي صار أول معبود ومبجل ومحبوب لدى غالبيتهم الذين ينتشر صيت عن تقواهم و زهدهم وعلمهم من تزوج شريكة أحلامي غصبا ، عرف العدو الأول للشعوب واستخدمه أفضل استخدام وحوله من قداسة قرآنية إنجيلية إلى دناسة وضيعة بشرية تظهر تارة في لحية وأخرى بعمامة أو قبعة المهم ما تطلب يا صاحب الأموال لدينا ، أرجو أن لا تظنوا بأن أحدا يكره دينا نراه نورا في أخلاق متبعيه، ما نفع الكهرباء لولا مصابيح تحولها لنور يستضاء بها في الظلمات ! هل لأحد أن يرفض دواء يعالج السرطان لأن مصنعه ملحد؟ حقيقة إيمانه بدت نورا في اختراعه فنتسابق كالفراش لنحترق رغبة بدوائه!

وبعد أن قرأت أكثر مقالتها الصحفية، وعرفت كثيرا ما أصاب الزمن فيها، وبعد خروج الخنازير من العراق الحبيب، قصدت دمشق باحثا في أكوام الدبابيس عن قشة الحبيبة، لعل هذه القشة التي أنوي الغرق معها تجعلني لأول مرة أحقق حلما تمنعه الدساتير المشرقية من الوجود للحفاظ على الجمود الذي ينعي أي تغيير حتى قبل أن يولد.

في الحقيقة وأرجو أن لا تتفاجؤوا لم أكن على معرفة حتى بأبسط وسيلة للتواصل الهاتف القتال للبراءة فقط عند الشعوب الغبية التي سكنت في خيمة وأغلقت الأبواب بوجه الرياح معتقدة بذلك أنها ستتجاوز أي تغيير أو غزو يهدف لسلبها أصالتها الموروثة عن الأجداد ، ويبدو أن شعوب العصبية القبلية حذفت الرياح معتقدة بأن لقاح قبلياً تفوح منه ريح العصبية والبداوة قد تعوض الأزهار عن محبة الإنسانية والتعايش بسلام و إيجابية مع التغيرات المتواترة سراعاً،فأثمرت لقاحاتهم تجزئة وتخلفا واستعماراً، وتجاهلوا عن سابق نفاق واحتيال أن السبيل الوحيد لحماية ما يعتقدون بقداسته يكمن بالعلم فالعلم فقط كفيل بمواجهة أشرس الأعداء ، هل لكم أن تفكروا كيف سقطنا ضحية لجلد استمر منذ أن كثر المفسرون والمغنون وقل القراء والقادة المعلمون؟

المهم وبعد أشهر قليلة من وصولي لدمشق هارباً من محاولة اغتيالي في بغداد وبعد دورات تعليمية خمس نجوم في البعد عن الإبداع والتميز والدعم لفكرة النقل بلا فعل ولا عقل!

أنشأت صفحة على مختلف مواقع الخلاعة والتناحر الاجتماعي، عفوا أقصد التواصل الاجتماعي، وبدأت بحثاً شاقاً عن الحبيبة التي أصبحت صحفية مشهورة طيلة مدة غيابي، وحين عدت أبحث عنها، تحولت فجأة لمعرفة بنكرة أو كما يقال اختلط الدبس بالطحين.

وبعد أن زرت كل الصحف التي عملت بها وبعد مرور عام كله بحث وفضول يشبه الحصار الذي لا مفر من الاستسلام إليه، جاءني اتصال هاتفي، ألو نعم أنا صابر، من أنت سيدتي، صمتت، قالت: أنا من أسميتني ذات مرة فتاة لا تدري.

يا إلهي الصواعق كانت أيسر على طفل صغير في ظلام كبير مما فعله صوتها وكلامها الذي تحيكه ببراعة في قلبي.

أين أنت؟ لم أترك شبرا كتب عليه اسم مجلة أو صحيفة إلا وسألت عنك.

لم أعرف إلا حين أخبرتني ماري.

لكنها أخبرتني أنها لا تعرف عنك شيئا.

أنا من طلبت ذلك منها، لكن حلما ما جعلني أعرف أنك تبحث عني.

سادت ابتسامة مكتومة وجاء صمت يدوي كإعصار يمزق قلبينا.

ما أجمل ضحكا صامتا يفرضه خجل ذكرى وكبرياء مودة!

لا زلت تحلمين يا أميرة الأحلام!

نعم، الأحلام لغة الذين يدرون أنهم لا يدرون.

سألتني: هل لي أن أراك؟ شرف كبير لي سيدتي!

سأعود من دبي قريبا، عندي رغبة بإجراء لقاء صفحي أحوله لرواية تتناول حياتك الحافلة بالإنجازات ثم تابعت قبل أن يستنتج شيئا، أريد أن أراك شئت أن توافق على طرحي أم لا أرجوك ساعدني ثم استدركت وضحكت ساعدني الزمن صعب.

حسنا متى ستأتي؟ أحس بخطأ السؤال فصحح بحصافته المعهودة، عندما تأتين كلميني؟ وداعا.

حين أغلق السماعة، كانت عظامه الباردة ترقص بخشونة بالغة الإبداع، أحس أن زوربا اليوناني،

كــان محقــا حــين قــرر أن يحــزن ويفــرح ويمــوت ويحيا راقصا.

نعــم، الجســد الــذي نحتتــه قــدرة الله، أجمــل لوحــة رسمت!

لأنــه أصــدق انعكــاس حتــى لأصــغر الحقــائق وأكبرهــا على السواء!

لــم يصــبر قلبهــا الجــريح، فظلــت تخــاطره وتراســله وتصدر أفكار السعادة إليه فهاتفها،

وبعــد حــوار جليــل البهــاء ســألها مــا هــو اســم حســابك على الموقع الأزرق المخادع ((الموقع الأزرق)):

فقالــت كمــا أســميتني فــي أخــر لقــاء، آه لا زلــت تــذكرين؟ نعــم تلــك التــي اســمها لا تــدري، وأود أن أتمــم عباراتــك القاســية المتغابيــة للعنــة المجتمــع الــذكوري! حســنا أتميهــا، فقالــت: الباقيــة فــي قلبــك والجاثمــة علــى صــدرك والتــي ســتكون كشــاهدة علــى قبرك ورفيقة دربك إلى السماء.

وأغلقــا الهــاتف القتــال! وبــدأ مشــوار الموقــع الأزرق المخادع ((الموقع الأزرق))

ولكــن كلاهمــا انتظــر الصــباح فالوقــت تــأخر، وعــادت رســائلها الــلا مســموعة تثقــب صــمت ليلــه وتشــعل جمر أشواقه من جديد.

كتب إليها مستذكرا ومذكرا:

يـا مـن لا يطيـق انتظـاري صـبراً لكـي يراهـا أناشـدك بالله ألا تبقي في بيروت أحلامي

فقـط بـل أن تخرجـي منهـا لتكـوني معـي واقعـاً أعيشـه وأتحسـس لـذاذة الحيـاة بقربـك فـي دمشـق حتـى لـو انتهـت حيـاتي بعـد أن ترمشـك أهـداب حبـي وجنوني.

هـل تـذكرين؟ فـي ذلـك اليـوم العجيـب عنـدما كنـا شـبابا فـي طريقنـا إلـى جامعـة الموصـل، حـين حـاول أحـدهم أن يغتصـب ابتسـامة طفلـة صـغيرة بريئـة بجمـود نظراته وجحود وإنكار كلماته لجيلنا.

عنـدما قـال :جيـل آخـر كـلام، وكوفيتـه المهترئـة التـي تـروي رائحـة عفـن ذاكرتهـا وتجاعيـد تفاصـيلها عمـراً مـن أحـزان البندقيـة العربيـة والتـي تنقلـت مـن نكبـة لنكسـة لإيمـان مطلـق بـأن هزائمنـا كانـت إمـا مـؤامرات أو قـدر، وصـوته الأجـش ونبرتـه الخطابيـة همـا الركـام الوحيـد الـذي حفظتـه تجـارب رجـال النكبـات والانتكاسـات والـذين سيصـبحون عمـا قريـب رجـال الصـف الأول فـي أمتنـا ، لأننـا سـنبقى أبـد الـدهر منكـوبين ومهـزومين لأننـا عشـاق ثقافـة الكـذب والخطابـات والتـي سـتبقى تسـاوي عنـد

السياسيين العرب ما يساويه رغيف الخبز على مائدة الفقير، وهؤلاء هم من سوف يحاربون الكلمة لأنها ستذكرهم بأنهم لم يفعلوا شيئاً إلا لحماية كراسيهم .

صوت هذا الرجل بدا وكأنه يخرج من جثة ناطقة تقرع أذان السامعين بهيبة الخبرة والتي تجسدت بنبرة صوته الأثرية، وبعد نقاش طال بيني وبينه، وقبل أن يغادر الحافلة، ودعني قائلا:(بوجهك رجولة) وتابع إن الخوف على الرجال في هذه الأمة التي تقتل الكلمات والزهور والقصائد واجب ومبرر. وتابع قائلا: إن المرأة الحقيقة التي بجوارك وهو يقصدك طبعا لا يمكن أن تكون إلا إشارة على صدق كلماته، وقبل نزوله ردت الطفلة علها تسرق قوة اللحظة من ركاب الحافلة وتعيد شمس غروبها مشرقةً جيل أخر إطراء، فضحك الركاب جميعا، ما أجمل الذكريات الشبابية!

- ..... حبيبتي لاحقا وأبدا.....

لم أزل أتجلد وأتعفف ضعفا واصطبارا على فقدك لا صبرا، وجهك الممزوج بسحر وكبرياء المرأة الشرقية وعيناك اللتان تشعان من حجر بؤبؤ يهما آلاف الكلمات الصامتة حياء لا خوفا

لا تــزالان فسيفســاء حيــرت قلبــي وأدهشــت عينــي بجنون جمالها!

آه لـو كنـت أدرك! كـم سـأفتقد تلـك اللحظـات الكوثريـة التــي قضـيتها بقربـك! لمــا سـمحت لشــيء أن يباعـد بيننــا اليـوم وبعـد هـذه السـنين الطويلــة لا أدري مـن كان فينا أسطورة الآخر.

بعـد أن أصـبح لــي أمـل بــالتلاقي معـك، وأصــبحت كاتبــا وسياســيا وشــهيرا ورســاما متواضــعا لا أدري أينـا كـان أكثـر وفـاءاً لـذكرى ولادتـه الأولـى علـى يـد حبه الأزلي.

أنــا الــذي شــقلبتني كلمــاتي يمنــة ويســرة بــين حبــي وحنينــي إليــك وبــين واجبــاتي وعــائلتي وكتبــي، لــم أعرف أيهما كان أقوى وأكثر وجودا أنت أم أنا.

الحقيقــة يســكن العــالم مختصــرًا بعــدة كلمــات فــي أذهــان الكثيــرين ، فهــو بتفســير الكثيــرين الســلطة المــال القـوة الرفاهيـة الإعـلام ، وهـذه الأشـياء تعهـد الشـيطان بـأن يجعلهـا علـة للوجـود لا مكمـلا وكثيـرا مــا نجحــت مهمتــه ، ليصــرف الــنفس البشــرية عــن عظمـة إبـداع الخـالق ، وبعـد كـل مـا حققـت عرفـت واعترفـت لروحـي بـأن حبـك كـان الـدافع والمحـرض لكتابـاتي ومغـامراتي ، كنـت أريـد الانتقـام مـن ذكـرى زواجـك الـذي فـرض علينـا مـن أهلـك بكـل أفعـالي

وأيام حياتي ، لولا الجراح التي سببها فقدك لما كتبت كلمة ولا حققت طوال عمري شيئاً غير استثنائي ، غيابك كان أكبر صفعة تلقاها قلبي فأضاءت وجعا وإبداعا وشرودا في حياتي ، ما أعظم قدرة الله ؟

ردت تلك التي اسمها لا أدري: خرجت؟ أمامي كبنفسج مختلف الألوان بهي المنظر طيب الريح، لم أكن أعرف ما لذي يجذبني إليك؟ وكأنها جاذبية أقوى من قدرتي على التوازن أمام سطوة مشاعري بحضرتك، كنت ألاحقك بنظراتي وكنت تتهرب من ضعفك لا مني لتنكر بذلك أني إلهامك وضعفك وقوتك وتناقضك الساكن في قلبك أبدا، لم أكن أستطيع الاقتراب منك لأن الذعر الذي كان يلم بك حين تراني وكأنه إغماء تسلل إليك ليلهيك عني يجعلني أخاف منك وعليك ولكي أتجنب ألم الرغبة فيك كي لا أصدم كنت أتجنبك في شهور تعارفنا الأولى ولكني اليوم أدرك أن الله رزقك شعور الخوف مني لأبقي مداد أحزانك وإبداعاتك الأبدية.

دموعي بغيابك وفقدك أعظم من كل كتاباتك هي حفظتك بذاكرتي وبأجزاء من جسدي خالدا أما أنت أفرغت حبي لتهرب منه على ورقك

ورسمتني ولونتني وشيبت وجودي لأكون بحياتك حدثا لا وطنا يسكن فيك إلى الأبد وها أنت ذا تقر وتعترف!

كان زوجي حين يستيقظ يتناول قهوته وفطوره دون أن يجرؤ على أن يوقظني لأنه اقتنع بما أخبرته أن فنجان القهوة والفطور الصباحي يجعلني تعيسة طيلة النهار والحقيقة كنت أتجنب ذكرى قهوتك الصباحية الرائعة التي كنت تعدها لي في معسكراتنا الصيفية.

افتح التلفاز عندما يغادر الزوج المفروض زوج الجسد والحاجة والعادة فقط

لتكون أنت حبيب الروح والرغبة والعبادة في قلبي، فأشاهد الكاميرات تأخذ صورك وتتحدث عن نشاطاتك الأخيرة وأسمع أولادي عباراتك الحكيمة وأترنم بها أمام زوجي وضيوفه

كم كنت أشتمك لأنك لا ترحل مني؟

قاطع صابر معاتبا بصورة استفسار: لماذا لم تحاولي رؤيتي بعد أن تركت العراق عام ٢٠٠٩ عقب محاولة اغتيالي؟

فردت تلك التي اسمها لا أدري متهربة من عتبه السابق: لقد سمعت عن توقيعك لمعرض رسم

تجريدي أقمته في دبي، وعائلتي كلها تعرف أنك المفضل لدي من الكتاب والسياسيين والرسامين لدرجة أن أحدهم إذا أراد أن يسعدني قدم لي شيئا من إبداعاتك كهدية.

وحين فاجأني زوجي بحجزه لنا على متن الخطوط الإماراتية، لم أكن أعرف أنه يريد أن نحتفل بذكرى فرحته ونكبتي أقصد عيد زواجنا، بحضور معرضك وتحقيق أمنيتي برؤيتك، وكم اختلقت الأعذار وتذرعت بالمرض وكره الرسم والملل واضطر زوجي سدا لكل ذرائعي أن يحجز للعائلة كلها حتى لا أهرب من مفاجأته، الكل كان راغبا بالتعرف إليك بعد أن عشقوك من خلال كلماتك التي لا تفارق حواراتي ومناظراتي الثقافية.

وحين دخلت دبي أغمضت عيوني خوف مصادفة لخيالك في تفاصيل الأمكنة التي مررت بها، فذكراك لا تزال تسري دافئة في قلبي، وعندما جاء ذلك الخميس، لم يعرف جسدي للنوم سريرا ولا عيوني للشوق ضريرا يوازيها بما فعل الشوق من رمد وجمر وعذاب من حبك فيها.

لم أنم وأنا أفكر كيف سأضع نظراتي وقلبي وحياتي وكل ما بي بين ميثاق شرف الزواج

وقدسية الحب الأول والأجمل؟ راحت أهوائي تتنازعني وكأني طريدة آلاف الصيادين ما بين حبي وهيامي وشوقي وحنيني إليك وبين التزامي وواجبي وأجزائي التي تحمل حبي في تفاصيلها لأولادي.

وحين جاءت السيارة في الصباح ، وتغلغلت دبي في أعيننا عبر بوابات سحرها وجمالها وجسور الحداثة وعمليات التجميل الغربية فيها ، تخيلتك تصفها لي وتبدع كعادتك ، هي أنت فشوارعها منفوخة كشفاه قد أخذت سيلكون ومبانيها أبراج متباينة التصميم شاهقة الارتفاع ، لكأنها تطريز إسمنتي ينتصب كالدبابيس على أراضيها، قطاراتها الممتدة كالأوردة و نخيلها الموروث الوحيد الباقي من أثر البيئة العربية التراثية، وحين نزلنا نتناول طعامنا كنا نرى جزيرة النخيل الممتدة كالأصابع في الخليج العربي أحسست كما لو أنها أصابعك تحاول أن تنتزع قلبي من أحشائي وتمتد لتقتل كل التزاماتي من أولاد وزوج ومجتمع لأبقى لك أنت فقط، لأنهم لو اكتشفوا من أنت وغلاك أنت في قلبي بعد أن بلغت الخامسة والأربعين من عمري وبعد عشرين عام على فرقتنا لاحترقت قلوبهم حقدا علي وغيرة منك.

وحين دخلنا روضة المركز العربي الثقافي بمها الصحراء العربية(دبي)، أحسست بحلم ينتزع الواقع ويحتله ويتبادل معه الأدوار وبأن الحب بلغ مرحلة الهذيان في قلبي ونظري ، لم أكن أتمالك حركاتي ولا كلماتي ولا أنفاسي وكأني في بيتي متحررة من كل القيود المفروضة ، لكأني أرقص كجماعة صوفية سكرت في حب الله وغابت عن وعيها بفيض الحب الذي جعل سكرها عبادة أي حضرة بل أي سطوة لوجودك أيها المحبوب ، لقد كان المركز يشبهك كثيرا بكل تفاصيله، فبابه الكبير ذكرني بكبرياء رجولتك، وزخرفاته الشرقية الفارسية ورسوماته الهندوسية الهندية والفسيفساء الصينية البوذية وآيات القرآن الكريم وأبيات الشعر العربي القديم جعلتني أحن لصوفيتك التي أمنت بكل شيء يمجد الله المحب والعبد الضعيف الخاطئ اللاجئ إلى الله ، لم تكن رغبتي تريد أن ترى شيئا إلا لتتذكرك به، وكأن دبي تحمل شكل مدينة ومضمون قديس لا نستطيع إلا أن نعظم محبته في قلوبنا وزارت عيوني على غفلة وسهو مني وجهك بعد سنوات الحنين المخضب بدماء الشوق والذكرى و كأن دما من زمرة أخرى قد دخل دمي فار تصت الذكريات تعصر قلبي بجنون عظمة الحب الأول!

رأيتك نعم رأيتك وكأنك آدم وليس قبلك بواقعي أو حتى مخيلتي رجل.. ذقنك الذهبية التي تتموج فيها خيوط الشيب البيضاء أحسست كما لو أنها وجه نمر سيبيري مرقط له هيبة في الغياب والحضور، وابتسامتك الدائمة كانت كما لو أنها من واجبات الضيافة العربية ولغتك الطليقة بكلماتك المختارة المنتقاة العذبة بصوتك كانت تشق قلبي الذي يحاول جاهداً ألا يغمى عليه حتى لا يحرم من جمالك الفتان أي قطار أنت! ينطلق بسرعة الحب التي تسبق سرعة الضوء عند الشرقيين، والتي قد تكون أسرع من الضوء إذ ما قيست بيسر وسهولة ممارسة الجنس لدى الغربيين بعد لقاء أو لقاءين.

كنت خلف رسمتك التي أسميتها بمدارات الرؤية، راح بدني يرتجف من الخوف والحب والبرد وخرجت مسرعة خشية أن تراني وتظاهرت بالإعياء مجبرة زوجي على المغادرة معي بينما بقي أولادي ليمطروك بمحبتي وأسئلتي دون أن يعرفوك.

هل كنت أيها الرجل مهما بلغت من الرقي؟ ستجاري ولو شكلا حبا جارفا احتضنه قلب امرأة!

فتابع صابر الحديث عنها، نعم يومها جاءتني ابنتك.

ما اسمك؟

- سيدي اسمي حنان

سمعت الكثير عنك، ممن سمعتي سيدتي؟

والـدتي! (شـعور مـا كـان يقـول لـي بأنـك حـولي وبشـكل يكـاد يجردنـي مـن ثيـاب لبسـها نظـر المجتمـع كلما حدق صوبي.)

تـوترت وتسـرعت نبضـات قلبـي فقـد تكلمـت بأسـلوب يشـبه أسـلوبك، سـألتها مـا اسـم أمـك؟ هنـا كـاد قلبـي يتوقـف ودمـوعي تسـيل مـن شـوق شـقي وحنـين خفـي يستوطنني كلما ذكروك أمامي!

- أمـي مـريم، ابنتـك كانـت أذكـى مـن أن تخفـى عليهـا أحـزان عاشـق تغـزوه أعاصـير الـذكرى التـي تكـاد تفـوق بارتفـاع نبـرات شـجونها ارتفـاع قمـة إيفرست.

ثـم سـألتني مـا تلـك اللوحـة؟ فاسـتعدت لحظـات وجـودي مـن مقصـلة الـذكريات التـي تعصـف بقلـوب محبـة وحنونـة فقـط، وأجبتهـا: إنهـا مـدارات الرؤيـة، خطفـت منـي استرسـالي، وعـادت تسـأل! سـيدي مـا المقصـود بالمسـتطيلات التـي تخطـف مـا يزيـد علـى نصـف اللوحـة وبشـكل متـواز، مـا الرسـالة التـي تريـد قولهـا؟ وتابعـت وفضـول المـرأة يغـزو تفاصـيل

أفكارها! وما ذاك العظم البارز من وجه اللوحة ويتطاير؟ ما تلك الأسهم التي تخرج طورا وتعود تارة أخرى؟ ثم استدركت إنصاتي واعتذرت على غزارة فضولها!

وطلبت مني صورا للذكرى، وشكتك لي، فقالت أمي لا تريد العودة لدبي معنا ونحن غدا نسافر مع والدنا وتبقى أمنا وحيدة بدمشق تقول إنها تستعيد روحها، لكنني عدت معهم لأحصل على إذن من مجلتي للعمل بدمشق...

سيدتي: نولد أحرارا كما قال سيدنا عمر ولكن الحرية التي قصدها وأفهمها حرية موهوبة للإنسان من الشر، هي ثوب يقيه من شر التعاسة عندما يحب أخاه، عندما يعرف أن الخير في بيت جاره خير يعود عليه.

الوجه هو كما قال سيدنا على (ما أضمر أحد من شيء إلا وظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه).

هذا الوجه المحصور بسبعة مستطيلات متوازية كإطار، يبرز عظام وجهه من كثرة ما عاش ويعيش كذب الدنيا ويتألم ضميره الموهوب له (الحر من الشر) أمام الجشع المكتسب عنده من زيف لصوص المجتمع.

وتلك الأسهم التي تخترق المستطيلات من الداخل تعكس أثر الإنسان الطيب وضميره الحي وخالقه المبدع كما يؤمن به، بما حوله، والأسهم التي تخترق المستطيلات من الخارج تعبر عن الشر والشيطان والشهوات.

وهذا الوجه الذي برزت عظامه يخوض معركة التفاحة والإغواء، فإما أرض أو جنة.

أما المستطيلات: فكل واحد منها يمثل جانبا من الحياة وما اخترقه السهم من الداخل دل على إنسان إيجابي خير فاعل، وما خرقه السهم القادم من الخارج دل على إنسان سلبي منفعل.

ثم ابتسمت وأخذنا الصور التذكارية وغادرت الصالة، لم تطلب رقم الهاتف أو الفاكس وكأنها أنت.

ثم التفتت وعادت وعانقتني عناقاً اخرج رجولتي دمعا على كتفيها، وضعت فمها التتري المختمر الشهي في أذني التي أصبحت مخمورة بعدما سمعت صوتك في حنجرتها كأنشودة لا تعترف بالزمن، واستدركت: الآن عرفت لماذا لا يتعانق الصليب والهلال إلا في دمشق وبغداد وبيروت، الآن عرفت لماذا عانقك صليب أمي ولماذا تحول هلالك قديسا تعبده أمي في جامع المسلمين؟

تركت الصالة وعدت للمرسم. ألقيت أخر مليار قناع لبسته، ورحت أستذكرك وأتلهف رؤيتك وألوم نفسي لأني لم أطلب رقم الهاتف.

ولما عاد هواك وعاد الشوق المحموم الذي لا يرويه وجهك بنظرة، بدأت أفكر بشيء ما يوصلني إليك، كنت مغامرا بالأفكار طيلة حياتي أما اليوم قررت أن أغامر بالأفعال سأجدك وهذا الأمل هو ما يجعلني أحيا متفائلا وقويا كل رغبتي لقياك قبل أن يسبقك الموت ويستغل علامات مرضي.

فالعمر المتقدم نوعا ما أغمد سيفه بجسدي المتساقط كالأسنان اللبنية وبدأت أفكر جديا بكرسي اعتراف أمام عائلتي، ولأنه يتأمل عودتك لن يستسلم إلا بين ذراعيك للضعف.

قالت تلك التي اسمها لا أدري: هل تذكر أخر مرة التقينا فيها بمكتبة الحاج علي

قاطعها: وكيف لي أن أنسى، هل تسمح عيناك الدامعتان وقتها لقلبي بالنسيان، حين ذاك هربت من الحقيقة وغيرتها كي لا تؤلمني وتألمت وحيدا، حينها قلت لي مبررا وأنت تجهد أن لا يظهر ولو انطباع واحد على وجهك يزعجني، بأن أهلي رفضوك لفقرك ليس إلا، وأن سعادتي في جزء

كبير منها أن أعيش بالحد الأدنى بالرفاهية التي أعيشها عند أهلي وكم كنت تزداد جمالا و بهاءاً بعيني يومها أخفيت رد والدي بأنك مسلم، وحين قلت لك، هل رفضك أبي لأنك مسلم؟

فأجبتني: أنكم المسلمون في أول كتابكم المقدس تقرون بحقيقة الإيمان بما نزل من قبل بنص شرعي واضح وقلت لي نحن أبناء طوائف مختلفة لكننا من دين واحد، لأن الحب والسلام دين الجميع، لأن كل مسلم هو في حقيقته مسيحي وأن أبي لم يقل شيئا ولكنه يريد لي الأفضل وهو محق.

حينها لم أدرك أنك تخفي الحقيقة، وتركتك وحيدا وذهبت ودمع وهزيمة ومرارة هي ذكرى أخيرة منك في روحي تستوطن.

ظننتك تنسحب وتهرب من حياتي، لأنك قلت لي بأنك فقير ولا تملك أحيانا حتى ثمن طعامك، لم أعرف أنها كلمات أبي الجارحة التي سقطت كسكين في قلبك تدميك.

كان جمالي يثير غرائز من حولي ومشاعرهم، وأهلي يتمنون أن تذهب لعنة الضيوف الذين كانوا يقدمون كل مساعدة نريدها من أي مكان وبدون طلب للفت انتباهي ، المختار ذي الستين عاماً دبر

لأخي وظيفة وساعدني في عدة معاملات حكومية، وفاجأنا بطلبه الزواج مني، والطبيب الجراح المتعجرف الذي أهنت كرامته وجعلته يذهب دون أن يفكر بالعودة مرة أخرى، وكأن الجمال لعنة في حياة المرأة يجعل منها سلعة الكل يتهافت ربما فقط لنيل الجائزة الكبرى بالحصول عليها وبدون حتى أن يحبوها حقا، وأخيرا تقدم لي ضابط يفوقوني خبرةً وعمراً وفهماً وتحت إغراءاته لأهلي قدمت له على طبق البركة العائلية والقبول الكنسي والاحتلال الصارخ لرغباتي .

عشت معه أعوامي الماضية مختصرة زواجنا كل ليلة بخمس دقائق في فراش الجسد وجهنم الروح وأتابع بالنهار اختصاري العاطفي بالتطويل حينا والإيجاز أخرى في العمل أو البيت وهو يعرف أني أهرب منه.

تواعدا أن يلتقيا في عالم حقيقي وأن الافتراض أو الانترنت الذي ساعدهم بإحدى أدواته الرائجة (الموقع الأزرق) لا يكفي لإكمال الحديث.

هو في بيت العرب ومسقط رأسه (دمشق)، وهي تعيش في الهجين الغربي العربي (دبي)، هو في عاصمة تكافح أعراض السقوط العربي الذي بدأ منذ اتفاقات الاستسلام مع العدو في أدمغة مريضة

بالوهم وتعاني حمى خدعة السلام مع الكيان الذي حول سلامهم لاستسلام، وهي في ركن أضاءت فيه حداثة تحاول جاهدة أن تجعل من العرب روادا وأسيادا في العالم الحديث لا عبادا.

هو في بلد يعشش التاريخ في كل مصطبة وبيت وحارة وحتى سيارة، وهي في بلد يمتشق سيف الحداثة في كل مشروع وناحية ومبنى.

لكأنها لعبة الطرة والنقش الوجهان حقيقة لعروبة واحدة وإسلام إنساني لا طائفي تسكنه عفونة حقدٍ أو قسوة وجفاف عقول البدعة.

هي في بلدٍ رآه الشيخ المغفور له زايد وحققه، وجعل منه درةً تضاهي أجمل وأبهى وأحدث مدنِ العالم، وهو في أقدم عاصمةٍ في التاريخ.

كلتا المدينتين تشهد أنها أخت للأخرى وأنها سند للأخرى، حجارة دبي قد تبكي شوقا لروح صلاح الدين الذي ما كانت لولاه هناك بالأصل أمة عروبة، ودمشق تفتخر بأن العرب يملكون بلقيس أخرى لزمان أخر، وتتباهى قائلة: نحن إذا قررنا أن نسوده بأخلاقنا بعروبتنا بكل ما فينا سدنا.

كلتاهما تبدأن بحرف الدال ويحق لهما التيه والدلال، كلتاهما منارتان والعالم يعرف السيف الدمشقي ويعرف حداثة دبي.

هذا الجناس والاختلاف يتحول طباقا وانسجاما بين أحجار وأدباء ورجال وشعراء أمة واحدة تسكن مدينتين، المدن تتحد ونحن نقاوم شهادة الحجارة بوحدتها وعروبتها وإسلامها ربما لجهلنا بكل اللغات التي توحدنا.

كيف سيلتقيان؟ وهما يظنان أن المدينتين في دولتين وعالمين واتجاهين مختلفين، وحقيقة الأمر كما قلت لكم تجيب عليه شهود صوتها لا يسمع لأنه إما أن يعشق فيسمع أو أن يتجاهل فنضيع نحن العرب بضياعه، ولكني أؤمن أن انتفاضة للحجر ستهب ضد الحدود لتعيدنا أمة عربية واحدة مهما طال الزمان.

كلاهما ولدا بالعراق الغارق في خدع ومؤامرات صنعها ذئب غربي وعقرب أعرابي ولكل منهما أذنابه، كلاهما بحسب الميلاد بهوية عراقية ولكن لا تنتهي حدود الإيمان بالأمة عند جغرافية العراق العظيم.

أي حظ هذا تتحول أمم أوروبا المتباغضة والمتصارعة لاتحاد يعيدها بعد زمن أمة، ونحن أمة تحرق وتغرق وتمزق كل يوم شيء من مشتركاتنا فلا يبقى مشتركا بيننا لا ولن ولم يزل إلا لغتنا التي تحولت أرملة تشتاق من يضاجعها

ولو بنظر وكأن سان الحال يقول: الضعيف يزداد فرقة وضعفا والقوي يزداد تجمعا وقوة.

رن هاتفه، تثاقلت خطاه ولكن شباب دب في حركاته لأنه تذكر أنها قد تكون المتصل وعادت روح الحب تنبض في قلبه حنينا..

مرحبا، كيفك؟ بدنا نحدد موعد نلتقي فيه! (تعلمت لغة الشام المحلية)

نعم، لكن، أين وأنا بسورية وأنت بدبي، قالت: لا عليك سأتدبر الموضوع، ما رأيك بشهر شباط.. لا مانع لديك! نعم نلتقي أن شاء الله، وداع الوداع نلتقي قريبا، أغلقت الهاتف، أف لقد نسيت أن أحدد التاريخ باليوم ساعة ومكان اللقاء، فكرت لكنها انسحبت من قلبها ومشاعر ضعفها وقررت أن تبلغه في المرة القادمة وأن تقاوم لهفتها بتحديد الموعد، أما هو فظن أن الموعد ترك عمدا ليطلبه، فتكون له الأفضلية والأريحية بالزمان والمكان

شهران من التحضير لزفاف اللقاء

(ركوب الخيل لا يعني أنك تتمتع بالفروسية)

دبي ٢٠١١

بعد أن أغلقت الهاتف، نسيت أن تنسى أنه لازال بعيدا وأن الشرود الطويل سيعجل باكتشاف ما تنوي القيام به، ثم قررت العودة لحياتها الاعتيادية ريثما تقرر كل ما يتعلق باللقاء.

بدء رئيس التحرير في مجلة الخالدون، يسأل ويفتش ويحاول أن يجمع فكرة عما يدور بخلدها، فلقد تعود الجميع على أعمالها الصحفية الرائعة والتي لا تعيرها الاهتمام الكافي، أما في حديثها صباح الأسبوع الماضي، كانت عيناها تبرقان وصوتها يعزف أسطورته كقيثارة وجسدها مشدود على غير العادة، وهي تخبر الجميع بأنها عثرت على صندوق أسود يتحدث عن أسرار وتفاصيل عاشها العراق تحت الاحتلال وقلة من يعرفون هذه التفاصيل.

لقد حصلت - لكونها الأبرع في عملها بالمجلة ولأنها حصدت من سنوات إقامتها في دبي سمعة طيبه- على تمويل كريم من السيد أدهم يشمل كل تكاليف الرحلة من مبيت ومأكل ومشرب وحتى أدنى التفاصيل، المهم أن يحصل القارئ على معلومة من مصدر له اسمه وتاريخه في العمل الصحفي.

لـــم يبـــق ســـوى الـــزوج والعائلـــة، حتـــى توضـــب أغراض السفر بلا مضايقة من أحد.

وبحكـم العـادة لـم يعتـرض الـزوج، لأنـه يعـرف أنهـا مـا كانـت يومـا عاديـة فـي إخلاصـها لـه ولأولادهمـا، ولأنـــه يعـــرف ســـلفا أن عنـــاد هـــذه المـــرأة شـــيء لا يمكن أن يتغير مهما حصل.

أمـــا ابنتيهـــا فـــالغرق بمفـــاتن العـــالم وحـــب الســـياحة والسـفر وعشـق التـاريخ والـتكلم مـع الحجـر، بـات كـل ما يهمهما.

بـدأت تفكـر مضـى كـانون الأول ونحـن فـي كـانون الثاني وبرده غني عن التعريف.

ثـم جاءهـا اتصـال منـه! ألـو مرحبـا هـلا كيـف حالك

الحمـــد لله، ســـألها: هـــل نســـيت شـــيء مـــا المـــرة الماضية؟

آه نعم موعد ومكان اللقاء! أليس كذلك؟

مـــاذا تقتـــرح؟ أجابهـــا: أنـــا متقاعـــد لا عمـــل عنـــدي فالحياة تستحق استراحة لنستمتع بها.

أوه! نعـم فلـيكن اللقـاء بشـهر آذار فـي يـوم الانقـلاب الربيعي.

ضحك! عرفت أنه فهم الإشارة، فراوغت بسؤال: ما المضحك؟

قال: لا شيء مهم.

أما الساعة يا سيدتي فلتكن في الخامسة صباحا، أصابتها الدهشة وسألته علاما؟ فقال الفجر صديق وسطي بيننا لا هو متسربل بليل ولا هو متسربل بنهار هو وسط بين جميع التيارات، أجابت لا مشكلة اتفقنا وداعا وداعا.

أغلقا السماعة، وهي ما زالت تحاول أن تعرف ما أضحكه! حين حددت موعد اللقاء.

عادت لفراشها الذي اعتادت أن تدس جسدها فيه كلما أرادت أن تفكر بعمق، لكنها وعلى تعب الفكر وإعياء الروح للقيا، هجرت أفكارها المحبوسة إلى بحبوحة من أحلام متخمة بالشوق والحنين أيقظها شخوص الحبيب كخيال أقرب من قبل ومن رغبات وملذات لم تعرفها حيث تمنت بل حيث أرادت عادات القبيلة الأبوية أن تدفنها في زوج هو الأنسب للعائلة وكأن العائلة هي من ستتزوج.

في صبح اليوم التالي طلبت من مدير المجلة إجازة وتذرعت بالمرض ولأول مرة في تاريخها المهني تتغيب عن عملها، وأثناء تناولها كوب

الشـــاي ومتابعتهـــا للتلفـــاز، ســـمعت عـــن مـــا يســـمى بالبرمجـــة اللغويـــة العصـــبية، وبـــدأت تفكـــر بشـــيء أكثـــر جديـــة لتفـــرغ طاقاتهـــا وتســـتعيد حيويتهـــا، أوه اليوغـــا وانتظمـــت بالفعـــل ولشـــهرين متواصـــلين بتمـــارين اليوغـــا، لا زالـــت الأنثـــى التـــي تحـــب أن تكـــون الأجمـــل فـــي عينـــي صـــابر، تحيـــا فيهـــا بـــالرغم من الإهمال الذي أصابها بالسنوات الماضية.

وصـــباح يليـــه ليـــل وتعاقـــب ســـريع مـــن الأيـــام وضـــعها على قرابة أسبوع من تاريخ السفر لدمشق.

جـــاء الصـــبح علـــى غيـــر عادتـــه فـــي حيـــاة عائلتهـــا، فلطالمـــا كانـــت الســـباقة فـــي الاســـتيقاظ أمـــا اليـــوم تـــأخرت حتـــى الثامنـــة، لكنهـــا لـــم تجلـــس كثيـــرا لتنـــاول إفطارها، أسرعت للخروج.

ذهبـــت الســـوق تبحـــث وتبحـــث علـــى غيـــر عادتهـــا فقـــد كانـــت تشـــتري مـــا تـــراه دون أن تســـأل عـــن جمالـــه بعـــد اللـــبس ، أو مناســـبة لونـــه لوجههـــا ، ويبـــدو أن البـــائع الـــذي خبرهـــا ســـنين عديـــدة أحـــس بشـــيء مـــا غيرهـــا فجـــأة ، لكنـــه ولإيمانـــه الشـــديد بـــأن مـــا يجـــذب الزبـــائن للشـــراء هـــو وبالدرجـــة الأولـــى حســـن القـــراءة لمـــا يريـــدنا الزبـــون أن نقـــول ، ولطالمـــا اشـــترى النـــاس مـــن بضـــاعته لأنـــه أفضـــل مـــن عـــرف بحســـن الكـــذب علـــيهم

ولأن كذبه التقى ورغبات هروبهم من مآسيهم الشخصية تحول الكذب صدقا وكأنها حرارة النار في ليل حار والتي يفضلها الخائف على رطوبة الجو المعتم والمظلم لأن الخوف من المجهول قد ينهي حياة المتمسك بالنور والنار.

أما هو فكعادته بين النرجيلة في المقهى والمرسم في البيت يقضي جل أوقاته إلا أن ما طرأ بعد اتصالاتهم المتعددة ميل واضح في شخصيته لمتابعة الأفلام الرومانسية وزيارة الأماكن الطبيعية والهرب من المسؤولية وكأن مراهقة الستين عادت في أحلى إطلالة خريفية.

اللقاء بأرشيف تاريخي أسماه الله دمشق وعشق صوفي أسماه ب لا أدري

(ما قيمة برج ايفيل لولا أنه يعيش في قلب أمة حية)

دمشق ٢٠١٢

وضبت أغراضها قبيل ليلات طويلة من تاريخ السفر، وككل الفترة التي سبقت سفرها لدمشق، أصبح سلوكها على غير العادة وبات من الصعب حقا على من عرفها طوال سنين إقامتها في دبي أن يتنبأ كيف ستتصرف؟

ودعت ابنتها وزوجها وأصدقاءها ومدير مجلتها، ووعدتهم بعمل يكون أجمل ما كتبته طوال سنين مزاولتها لمهنة الصحافة، ويبدو أنها كانت تخطط لعمل خالد ينسج حولها الأساطير الصحفية قبل التقاعد ولعل في القادم من الأيام ما يلبي رغبتها.

هاتفها صابر ألو مرحبا كيف الحال؟ متى ستكونين بمطار دمشق؟ أحتاج لساعتين على أكثر تقدير لأصل دمشق أوه حسنا الياسمين الدمشقي يتلهف صبابة لرؤيتك وفجأة يطلب من المسافرين شد أحزمة الأمان فينهيا المكالمة.

التوتر يملأ قسمات وجه صابر والحيرة والارتباك، ولكن صديقه بدأ معه حوارا هادئاً ليزيل مفاعيل القلق البادية عليه.

سأله صديقه، صابر ما بك؟ ما هذا الشرود يا صديقي؟ شاركني بهواجسك؟ كنت أتوقع منك أن تكون أسعد إنسان في العالم لأنك تثبت أن الحب ولو بعد ثلاثين عاما لا يفقد بريقه وأصالته ولكني أرى بدل ذلك خوفا واضطرابا.

أجابه: أتعرف يا صديقي أتمنى لو أستطيع الهروب منها والانسحاب لأني أخاف أن أفقدها مجددا حتى ولو كصديقة لا أكثر.

قال الصديق: وكيف ستقص عليها ما أخفيته عن أقرب الناس إليك طيلة سنواتك الماضية، ألست القائل: (إن من يدلي بسره لامرأة يكن كمن يلقي بنفسه من السماء متكلا على يديه لتطيرا به). رد صابر أتعلم يا صديقي ؟ ما جمال أن تشارك ما أخفيته أعواما عن الناس مع من أحببته طيلة حياتك مع من كان سراجا في أحلك أيامك، ولقد قررت أن أنشر القصة واحتاج لامرأة من ناحية ولمن أثق به من ناحية أخرى، فما تنشره المرأة بالحالة الطبيعية وبدون إعلام يكون أسرع في الوصول.

كم مر من الوقت ساعة ونصف، اضطرب صابر..

وغادر صديقه بناءاً على رغبته، أراد صابر وكعادته أن يعيش الخصوصية بحدها الأقصى، هو سيخبره بكل التفاصيل لكنه لن يسمح بتشاركها معه.

نزلت من طيارتها واستجمعت قوتها، وتقدمت بثوبها الكحلي اللون الواقع ما بين النضج والمراهقة والخصوصية والرسمية والواقع والخيال ، تصافحا لثمت خديه بقبلها التي سببت

خـدرا اسـتمر لسـاعات عـدة، ضـمها وهمـس فـي أذنيها يبدو أننا لا نزال شبابا.

ولكـم ارتجفـت مـن ألـم الخجـل و الـذكرى، كانـت تستصـعب لحظـة اللقـاء بـالحبيبين دمشـق وصـابر، ولكنهـا تجـاوزت الموقـف واسـتقلا سـيارة إلـى بيـت عربـي اسـتأجرته لتعـيش التفاصـيل الدمشـقية المحببـة علـى قلـب كـل عربـي ولتغيـر مـن طبـع الحيـاة ونمطها السريع الذي تركته في دبي .

أثنـاء التجـوال بالسـيارة، كانـت دمشـق تمتـد وتمتـد بـدون نهايـة وكأنهـا بأذرعهـا الكبيـرة فـي تـاريخ العـرب تنتـزع القلـوب لشـدة التصـاقها بتـاريخ العـزة والإباء.

تـرجلا مـن السـيارة إلـى سـوق الحميديـة المسـقوف الـذي لا يُعـرفُ عمـره علـى وجـه التحديـد لأنـه أقـدم أسـواق العـالم، وامسـك بيـديها والصـمت يرافقهمـا كخيمة.

هـو لأنـه يمـارس أفضـل شـعائره وطقوسـه بزيـارة الـروح والجسـد المتكـون فـي لـب العـالم القـديم (دمشـق) مـع أكثـر امـرأة أحبهـا طيلـة حياتـه، وهـي تستكشـف عالمـا لـيس بالغريـب عليهـا ولكـن سـحره يبقيها عاجزة عن التعبير.

حانوت يبيع التحف الخشبية كتب على جدرانه مواليده التي تزيد على عمر دول عدة بالعالم، وشيخ فيه قد شابت معالمه وشاخت ومع ذلك لا زال السحر الذي يصنع به منحوتاته يغرقه بآلاف السياح والمحليين القادمين ليتعطروا بعبق الأصالة وروح التجديد، وجامع في وسطه النافورة وزخرفات لا تقدر أشد الإبداعات الحالية لأعظم النحاتين أن تأتي بمثل حنينيته، والبوظة العربية في هذا السوق التي قرأت عنها في إحدى الصحف الأوروبية، كل ذلك ولازالت لهفتها تتسارع لزيارة الجامع الأموي ومقامات الأولياء والصالحين.

كانت تتلمس بخطاها الحجر وتسأل كم من البشر قبلي داس هذا الحجر؟ كم لديه من الذكريات؟ آه ما أحن حجارتك يا دمشق على كل البشر ، هنا كان حكام العالم يقطنون ومن هنا خرجت أعظم الحضارات للنور، زارت مقام يوحنا المعمدان ، ومرت بالحارة التي تأكل من الطريق أغلب أجزائه لكأن البيوت في دمشق من شدة الحب تأبى أن يفرق حيطانها الطريق فتضيق عليه لتبلغه أن الجار يحضن الجار وكيف لا وحائط مشترك بين كنيسة وجامع وبين قلب مسلم تجسد بصابر وآخر مسيحي تجسد بتلك التي لا تدري، لا بد لمن يزور دمشق أن يجد جزء منه ومن مقدساته

وأصالته فيها، خير ما يقال عن مشاعرها ، بأنها لا تدري من أين تتدفق كل تلك الفيوض الشعرية والشعورية؟

أهي من الحجارة! أم من الحب الأول؟ من المآذن أم الكنائس؟

في دمشق أرشيف الله على الأرض بكل اللغات وأعظم الديانات يولد الإنسان مكللا بالحب والسلام، ففيها لا تعرف إلا أن تجد مشتركا كبيرا من قواسم المحبة والسلام ليكون دينك الذي تمارسه الإنسانية.

وأخيرا فاجأها ببيت عربي كبير وقريب من ساحة باب القديس توما، دخلت تتلفت حولها وكأن الأحلام تلامسها في سن طفولي يجعلها تتعجب من رؤية القمر فتمد يديها لتلتقطه، حضنته وانهالت بالقبل على شفتيه.

بيت الياسمين بساحته وبحيرته المائية وجدرانه وشجرة الليمون وسط الدار وكأن اللغة الغالبة هنا حديث الأحجار عن تاريخ حافل من ألاف السنين من مئات ألوف الزوار، من يدري ربما سكنه القديس توما فعلا، أو أحد القادة العرب أو أحد الجنرالات الفرنسيين زمن الاحتلال، فدمشق كتاب تتناثر التواريخ فيه على الأحجار والأرصفة

والمـآذن وحتـى الفسيفسـاء المزخرفـة، وودعهـا علـى أن يلتقيـا غـدا لتبـدأ كتابـه الحكايـة، فـي ليلـة لـم تـنم عيونهـا ولا هـدأت روحهـا، فراحـت تنظـر للسـماء وتستعجل قدوم الصباح.

تذكرة عبور

(ربمـا تقطـع الخـراف سـاقية المـاء سـباحة، ولكـن طاقـة واحـد منهـا تمـد السـمكة الواحـدة لتبقـى تسـبح شهرا)

فـي الليـل المحمـوم بـذكرياتها والمحبـوس بوحـدتها ومحرمـات القبيلـة التـي تمنعهـا مـن النـوم علـى صـدر حبيبهـا، جاءهـا اتصـال مـن دبـي مـن رئـيس المجلـة يسـأل عـن أولـى حلقـات العمـل الـذي يعتـزم نشـره بالمجلـة، فأجابتـه بأنهـا لـم تكتـب شـيئا بعـد، وهـو مـا جعـل ضـيقه يصـل لحـد أن يسـألها: شـهرين ولـم تكتبي فما القصة؟ أغلق السماعة بانزعاج شديد.

ولكنهـا لـم تحتمـل تصـرفه الخشـن هـذا ربمـا لأنهـا المـرة الأولـى التـي يتصـرف بهـا هكـذا علـى الأقـل معهـا ، فرفعـت السـماعة وقـدمت اسـتقالتها بتصـرف لـم يكـن يتوقعـه أحـد، فمـن مـدة ليسـت بالقصـيرة وتصـرفاتها تشـذ عـن العـادة لدرجـة أن أقـرب النـاس منهـا لـم يعـد يسـتطيع التنبـؤ بتصـرفاتها، ربمـا كانـت

فرصتها الأجدى التي لطالما حلمت بها بالمغامرة وبنفض غبار العادة والروتين عن كاهلها، وقد أخبرها أنه لن يستطيع لقاءها ، فطلبت منه أن يساعدها بكتابه تقرير عنه ، تحلم بتحويله لرواية، لكنها بعد اتصال رئيس الجريدة ، تذكرت البيت والأولاد والزوج والحلم الذي تتمنى أن ينجح معها بتحويل قصة صابر لرواية تذكرها الأجيال القادمة لتكون تذكرة عبور من الصحافة للكتابة ومن الغياب المضني للحبيب لذكرى تعيش معها طيلة أيام حياتها ومن ألم لأمل ومن زواج عاشته بلا رغبة لحب قد لا تمارسه كزوجة أو حتى عشيقة لكنها لن تتراجع عن حبه مدى الحياة، نعم لقد فكرت بالخلاص من كونها أنثى تحكم بالعيب والحرام من صغرها وحتى موتها فكرت بعبور البوابة السحرية التي ستنقلها من عيش ما أراده الآخرون لتعيش ما خلقت لأجله، إنها الفرصة التي لطالما حلمت بها ولن تتنازل عنها ، سألت نفسها : آه إلى متى ستبقى المرأة بصورة المستضعف أو الهيولي البدائي كما صورها أرسطو لصالح الصورة المتطورة التي يمثلها الرجل، ترى هل سيستمر خداع الرجال عن المساواة المزورة على الورق والرقة التي لا

تظهر إلا في الفراش! إلى متى سيبقيهن الحب (النساء) حمقاوات؟ يصدقن أكاذيب الرجال.

بداية المشوار

(لكي يصبح الحب رواية تتكلم بدل أن نرويها، لابد من أن نغامر بعيشه وتجربته)

هاتفته مساءً وبعد الكلام الحار الجميل عادت تحدثه عن فكرة الرواية، لكنه وعدها بالعمل معها لتحويل الأمنية لحقيقة، وسألته: عن سبب طول وقت غيابه في بيروت؟ وبغنج دمشقي جميل، قالت له حبيبي إن لم تأت قريبا سأعود لدبي، فوعدها خيرا

بصباح اليوم التالي:

لم يخف ولعه بالفكرة واستحسانه لها، فتحت السكايب، وبدأت بعد السلام وبجدية ومباشرة وتلقائية في طرح الأسئلة:

ما الذي حصل بك بعد الغزو العراقي؟ هل بقيت بحارتك البغدادية أم ماذا؟

عندما تعرض العراق للغزو الأمريكي، تفشت طائفية الطاعون وانطلقت أيدي الخراب والنهب والاغتصاب وكأن التاريخ يعيد الكرة، فالقارة

الهندية الأمريكية، لم تكن قارة أميركية بسكانها بل تبنى المهاجرون الأوربيون سياسة الإبادة الجماعية، فقتلوا السكان الأصليين وسرقوا الثروات والأراضي ليتحولوا من ضيوف مؤقتين لمستوطنين مغتصبين.

ما سبق لم يكن وحده سبب قيامي بتنشيط لجان المقاومة الوطنية!

ليلة سقط العرب ببغداد، بكيت بحسرة وبخوف من المجهول.

في ذلك اليوم بدأ الموساد بأنشط حملة عبر تاريخه ، إذ أطلقوا سراح المجرمين من السجون وقتلوا الوطنين وداهموا المكتبات وسرقوا آلاف الآثار وقتلوا العلماء وكأنها مكتبة دار الحكمة يلقيها مغول جدد في بحر من خيانات بالجملة.

يكفي أن تفتحي التلفاز لتشاهدي القنوات العربية بغالبها تصور سقوط الصواريخ على بغداد وكأنه تحرير لفلسطين.

لم تكن بعد القدرة على تشكيل المقاومة موجودة، بالرغم من الشعور القومي العالي لدى الغالبية العظمى من شعب العراق العظيم.

ولكن وعذرا منك! قالت :(تلك التي اسمها لا أدري) أعرف تعلقك الشديد ببغداد فكيف رحلت عن دارك وحارتك وعشقك بغداد؟

كل واحد منا يمر بأشياء تطبع شخصيته وتحددها في قادم الأيام لحد بعيد، ولربما كانت حادثة تهجيري وعائلتي إحدى الأشياء التي تركت بصماتها طويلا بحياتي، لا أقدر أن أصف لك ذلك اليوم الأسود.

فبعد عدة مؤشرات وأحداث اضطرتنا ظروف الحرب الأهلية التي يلوح شبحها في الأفق على أن نحرص ونهتم بأمننا بشكل مشدد بالرغم من انتمائي العائلي للطائفتين السنية من جهة أبي والشيعية من جهة أمي إلا أن الحاصل كان أكبر مما نعتقد فالطائفة هي الشكل والقتل هو المضمون، كل وطني لن يشعر بعد الاحتلال بالأمان لأنه مهدد بالقتل من أبناء وطنه ومن طائفته نفسها، غادرنا منزلنا ونزفنا دمعا على جنبات حارتنا العريقة، هذين! أقصد البيت والحارة بما يعني الأول من سكنى ووداعة وبما يعني الثاني من جيرة طيبة، أصبحنا لا نعتبر اليوم يوما دون أن نجتمع سويا ... الورود والأشجار والبيوت وحتى الطرقات العشوائية وكأنها أسراب

مــن ســمك مختلــف الألــوان، تزيــد البحــر زينــة باختلافهــا فــي اللــون واشــتراكها فــي الحيــاة، كنــا وجيراننــا نصــبغ الحــارة بلــون التســامح والعــيش الموحــد منــذ ألاف الســنين ونحــن أبــا عــن جــد أمــة واحدة .....

فمــا الــذي حصــل؟ إنــه الشــيطان الأمريكــي بوجــه طــامع بغــيض (قاطعتــه) أنــا آسـفة لكـن احترنــا فالكـل بالحــارة وطنــي ويحــب أولاد حارتــه ومــا عــرف عــن واحــد فينــا أنــه ميــز بــين أبنــاء وطنــه بســبب انتمــاء طــائفي لأننــا نعــيش هــذا القــدر منــذ ألــف وأربعمائــة ســنة.. فمــا الجديــد؟ إل (نــا) تــدل علــى وحــدة المشــاعر العربية من المغرب العربي للخليج العربي شرقاً .

الجديــد يــا ســيدتي الفتنــة التــي أشــعلتها التدميريــة السياســية لــتطمس ديــن محمــد والمســيح وتــابع مسترسلا الحديث عن بيته.

بيتنــا أضــحى كفــرد مــن أفــراد الأســرة لــم نفــرط بســهولة بــه لكننــا كنــا أمــام خيــار صــعب بينــه وبــين ســلامتنا فاخترنــا مكــرهين الســلامة ، فرطنــا مستسـلمين بعـد مـا بـاع غبـاء ساسـتنا ومثقفـي الـدجل وقطيــع الخونــة ا ، جــل مــا أفقــده حــين أذكــر بيتنــا ، جيرانــي ، هــذا الكــردي الطيــب وذاك الموصــلي المرتــب والثالــث بغــدادي رائــع وتشــكيله مــن كــل

العـــراق عاشـــت ســـنين متحابـــة وســـتعود الإلفـــة والمحبـــة عنـــدما يقـــف للاســـتبداد ويعـــود العـــراق ، اذكـــر الطريـــق الجبلـــي الضـــيق والبيـــوت المســـتندة علـى كتفيـه وكأنهـا تريـد ابتلاعـه لتزيـد مـن مسـاحتها فتـرمم جـزءا يسـيرا مـن جشـع سـاكنيها، تفاصـيل الحـارة ووجـوه الأطفـال الشـاكية مـن ألـم الفـراق ومشـاعر الخـوف فـي لحـظ العيـون الأنثويـة الجميلـة ، الدكاكين والعطارين و الحلاقين ، آه يا عراق !

حتـى أعمـدة الإنـارة التـي تسـتقيل فـي الـدول العربيـة عـن الإضـاءة بعـد يـومين مـن عملهـا لتبقـى منظـرا شـاحبا يريـك أن الحضـارة وصـلت ولكنهـا بـلا مغـزى والمؤسـف حقـا أن أسـوأ مـن فـي الحـارة حمـل السـلاح لـيس لمواجهـة المحتـل بـل ليصـفي حسـاباته مـع أبنـاء الـوطن وليكـون خنجـرا مسـموما صـهيونيا سـلفيا أمريكيـا فـي قلـب الأمـة لا خاصـرتها ، كـلاب مسـعورة دينهـا المـال اتخـذت مـن الطائفـة عنوانـا للقتـل لتجعـل الـوطن جريحـا وتشـرد أهلـه وتحـولهم للاجئـين وصـارت أرضـهم مليئـة بخبائـث البشـر والسـلاح ، لكـن محـال أن تسـقط العروبـة المحقـة مـن قلـوب العـرب الشـاميين والعـراقيين ، وهكـذا كانـت الطعنـة الأولـى التـي أصـابت ملايـين العـراقيين والعـرب حـافزا لاختـراع الـدواء الأنجـع للعـودة إلـى

حضـن الكرامـة والإبـاء والعـزة حضـن العروبـة،.نعم كانت المقاومة زورق النجاة.

كنز العرب وكرامتهم

(لا أكره الموت ولكن أحب الحياة)

عـادت ترنـو للقائـه، وتسـأل الله أن يرجـع بسـرعة مـن بيـروت، لأنـه لـو تـأخر أكثـر فلـن تتـردد وسـتلحق بـه، لكنـه عـاد واتصـل بهـا وطمأنهـا لقـرب قدومـه ، ممـا جعلهـا تـزداد صـبرا فمجـرد أن تشـعر باهتمامـه يكفيها .

أغلقـت الهـاتف وعـادت للسـكايب لتكمـل الحـوار الـذي بدأتـه معـه قبـل مـرة وسـألته؟ أيـن ذهبـت بعـد تهجيرك من حيك في بغداد؟

كانـت الحـدود كلهـا مغلقـة بوجـه العـراقيين ، إلا أن الـدول العربيـة، اتخـذت قـراراً مشـرفاً دافعـت فيـه برجولـة عـن العـراق وفتحـت الحـدود واسـتقبلت العـراقيين، كمـا فعلـت سـورية سـابقا مـع اللبنـانيين والفلسـطينيين، وقـد امـتلأت روحـي آمـالاً حلـوة بـأن العـرب وسيشـكلون دعمـاً حقيقيـاً لنـا، ولـن يكتفـوا بالشـعارات والتصـريحات التـي لا تغنـي ولا تسـمن

من جوع ، وقد تفاجأت فالشعب العربي كله حانق وغاضب لسقوط العراق ويتمنى فتح الباب للمقاومة، ولكن ليس له صوت ، و العراق سقط كما سقط مليون فلسطيني في أيلول الأسود وضاع غور الأردن واحتلت القدس الشرقية بلا صوت اعتراض، عدت للموصل فالظروف كانت ناضجة تماما لدى الشعب العراقي بمختلف أطيافه، لتشكيل فصائل مقاومة، وفي ليلة من ليالي الموصل الشتوية، وجدت من يجمع الوجهاء للقاء سري وكنت من بين المدعوين، وضعنا بسيارة جيب ومن ثم توجهنا لمنطقة بعيدة خارج الموصل ، وسألونا عن رأينا بالموقع الذي تتدرب فيه المقاومة العربية الإسلامية، لقد دهشنا من جمال الإرادة العربية التي إذا أرادت فعلت ، وبالفعل تعهدنا بالدماء أن نعمل سويا لتحرير العراق ولحماية مقدساته من المساجد والحسينيات و الكنائس وبدأنا ندرب أبناء العشائر والمتطوعين العرب الأشراف الذين تركوا حياة الخنوع لدحر المستعمر العميل ،وبدأنا نعلمهم على تكتيكات الدفاع والهجوم والحماية واستخدام السلاح الخفيف المتوفر .

عراق الأمة بين الردة التدميرية والقيم العربية الإسلامية.

(ليس هناك شيء أجمل من الحرية والسيادة، ولكن أؤمن أن للاستعمار دورا لابد أن يلعبه)

تابعت السهرة وهي تفكر بكلام صابر عن تضارب مكونات المقاومة فكريا وعقائديا، ولكنها وأخيراً استسلمت للنوم في السادسة صباحا كالعادة ، ولن تعود الحياة لدورتها إلا عندما تستيقظ في الخامسة عصرا ، فاعتبارا من منتصف الليل لديها ضيف افتراضي على السكايب، فالعصر عندها هو الصباح والحياة عندها ياسمين تسري روحها في قدسية العمل، وبعدما تعطرت بصبح الياسمين وقهوة دمشق العربية ، وبعد لحظات قدمت لها الجارات البوظة العربية ، كل شيء في هذه البلاد عربي البوظة القهوة الرجال والحيطان والنساء والكنائس والمآذن والأسواق، لكأنك في زمن الراشدين .

انتظرت بفارغ الصبر قدوم الليل، فما قاله صابر أثار فضولها لدرجة أنها لم تكتب ما قاله في روايتها ، لم تزل تفكر وتحلل ما قاله، هي لم تعتد أن تكتفي بتقدم ما يروى فقط بل بالبناء والتحليل للمستقبل على أساس ما لديها من معطيات ولربما كان هذا سر نجاحها في السنوات الماضية.

هــاهو منتصــف الليــل يعــود وكأنــه بالنســبة لهمــا، إشـراق جديـد ياللعجـب، حتـى بعـد سـنين مـن فراقهمـا لازال القــدر يــؤمن علاقتهمــا مــن الخــروج للعلــن، فتحــت الســكايب وبــدأت بســلام مختصــر، فلطالمــا سـكنها حـب النجـاح والعمـل، ولطالمـا أحـب صـابر أن يتشــارك ذكرياتــه معهــا وأن ينقــل قصــته مــن الخفــاء والظــلام للأبديــة النورانيــة.. ســألته؟ مــا اســم المعسكر الأول؟

أجابهـا: لـم يكـن هنـاك معسـكرين فـي البدايـة علـى الأقل شكلا!

مــا الــذي تــود قولــه! كــان الجميــع يــدعي أو يتســتر بمشــروعية الــدفاع عــن الاســتقلال وحــق تقريــر المصير ومقاومة المحتل.

ولكـن فـي الخفـاء أشـياء ونظريـات أخـرى سـأرويها في حينها!

المهـم وبعـدما ذهبنـا لتـدريب المتطـوعين مـن العـرب والمسـلمين علـى اسـتخدام السـلاح، كنـا نصـعق كـل يـوم بالمفاجـآت، فكثيـرون مـنهم كـانوا يعلموننـا بـدل أن نعلمهــم اســتخدام الســلاح وكثيــرون مــنهم مطـاعون أكثـر منـا، بـل إن أحـد الأفغـان شـيخ طبيـب وحاصــل علــى شــهادته مــن إحــدى الجامعــات الأوربية.

وأكثر مشكلة واجهتنا كمدربين، كانت الكيفية التي نحاول من خلالها دمج العناصر اللا متناسقة للمقاومة العراقية؟ عدا عن كون النفسية العراقية المضطربة والتي لم تهدأ من عشرات السنين بسبب تتالي الحروب غبر عقدين من الزمن.

هذا عدا عن التداخل العرقي بين تركمان وعرب وكرد ناهيك عن التنوع الطائفي الرهيب والمخيف في ظل وجود مستعمر عميل، لن يتورع عن بث نار الفتنة والمذهبية اللعينة بين أبناء الشعب الواحد.

الهم الأكبر كان بالنسبة لنا كقوميين عرب الحفاظ على وحدة العراق وبالدرجة الثانية التحرير، فخطر العدوى إذا ما قسم العراق قد ينتشر للدول المجاورة.

وبعد فترة وللشعبية الكبيرة التي حققتها بين الطرفين، بدأ اسمي يلمع كنجم محتمل لقيادة المقاومة قريبا، قاطعته تلك التي اسمها لا أدري، ولكن كيف جمعت الفريقين؟

فقال لم أتنازل يوما عن اعتزازي بعروبتي وإسلامي، فشعائري الدينية وحفاظي عليها أكسبني محبي التقييم للناس بين الجنة والنار، وحبي

لعروبتي ودفاعي عن كل الدول العربية وبنفس المحبة والحمية..

في البداية، كنا نستوعب الجماعات المختلفة بالدعوة لقهر المحتل وإخراجه من العراق، وكم كنا نخشى انسحاب المحتل، لأننا نعرف أن انسحابه يعني اقتتالا دمويا بيننا وبين سارقي الأصالة والقيم، نعم صحيح أنه لاشي يوازي العقلانية بالمردود الجيد ولكن ولسخرية التاريخ يصادف أن يكون للغباء ممثلا بالاحتلال دورا ايجابيا بمكان ما في تاريخ الشعوب.

هل تعني أن الاحتلال إيجابي؟ لم يكن الاحتلال يوماً إيجابياً، ولكن لا بأس ببقائه عام أو عامين زيادة، لأن النتيجة الحتمية رحيله، أما المتخفون بالنفاق وتسيس الشعارات ورفع عبارات الممانعة والأفاقين والذين يسببون خلطا بسبب الجهالة بحقيقة الدين وعلاقته بالحياة إضافة لحاجة الناس للإيمان وبدون وعي ولا فقه ولاعلم يوقعهم كفريسة سهلة في شراك للاستبداد والدعوات التحريضية والسرطان الطائفي.

ومن ناحية أخرى قد يغذي الاستعمار النزعات للاستبدادية، ولكن مصالحه بمنطقتنا الغنية بالنفط، وقابلية المنطقة للاشتعال السريع، قد يهدد مصالح

الطاغيـــة الأورو أمريكـــي ممـــا يجعلهـــم، يفضـــلون التعامل معه بحذر مطلق.

معسكر واحد

في لباسين متناقضين

(لا يمكـن للـذئب أن يتحـول حمـلا، لمجـرد أنـه رضع ألبان النعاج، فطبيعة مورثاته أقوى)

بـالرغم مـن أننـا كقـوميين قررنـا أن نتحمـل المـرارة برحابـة صـدر، وأن نوجـه التدميريـة لتكـون وسـطا، لا معنـا ولا علينـا، وبشـتى الطـرق وبكـل الإمكانـات ولكـن تبـين بعـد حـين أنهـم بعثـوا لينوبـوا عـن المحتـل بقتـل العـراقيين ونشـر الـذعر بيـنهم وتقسـيم الشـعب الواحـد والعـراق الواحـد لشـعوب ولـدول طائفيـة، وفشلنا بترويض ذئاب الصحراء.

قالـت تلـك التـي اسـمها لا أدري: لكـن كيـف تواصـلت معهـم؟ ومـا الـذي جعلكـم تتصـورون أنهـم العـدو القادم؟

سـيدتي بليلـة مـن لـيلات الصـيف الجميـل ، دخـل أحـدهم الخيمـة ورآنـي أقـرأ القـرءان وبعـد مـا كـان يخفـي يديـه خلـف ظهـره ، خـرج وقـد امـتلأ اسـتغرابا مـن جهتـه ومـن جهتـي امـتلأت رعبـا وعرفـت بمكيـدة تـدبر مـن جماعـة النفـاق البربـري الأمريكـي تحـاك

لقتلي ، تمالكت أعصابي وتظاهرت باليوم التالي وكأن شيئا لم يكن - ولحسن حظي - التقيت بصديق جزائري وأخبرته بما حصل معي فطلب مني أن استعد لدخول جماعتهم وشرح لي بخبرته التي اكتسبها حين كان يعمل محققا في أثناء الحرب الجزائرية على للاستبداد، أساليب البغي و الغدر التي استخدمها الهمج الرعاع في قتل المدنين والعسكريين الجزائريين، ونصحني بأن لا أغادر الخيمة ليلا وأن أتهيأ لمحاولات لضمي إليهم ، وبالفعل وبعد عدة أيام وقد أكل الخوف مني شجاعة الموقف، فلا القتال معهم بهذا التوقيت مناسب ولا النوم في بيت العقرب ممكن ، وجاء أثناء الراحة بعد التدريب أحدهم وسألني عن رأيي بالشيخ الأفغاني ولحسن تربية والدي لي ولإيماني بخبرة صديقي المحقق الجزائري ، قلت له أنعم وأكرم ماشاء الله نوره بوجهه ، وبدأ الرعاع يتوافدون علي ويتحدثون أمامي عن مكرمات الشيخ وفضائله وقتال الملائكة ‘إلى جانبه، وخرافات لا تملك حتى حق التفكير بها ، فتداركت الجنون الكاسح والهبل والتخلف والجهل والبربرية الممولة من العناصر المتشددة وركبت موجة انتحار العقل وموت العروبة و مؤامرة التخطيط لإسقاط الدول الوطنية ، ولم تمضي مدة الشهر ،

حتى جاءت سيارة سوداء كعقول الرعاع في آخر الليل وطلب مني مرافقة من فيها، وبعدما وضعوا عصابة على العينيين، تم اقتيادي بمهارة لبيت الشيخ الذي تحارب الملائكة معه بحسب زعمهم.

قاطعته، ما اسم ذلك المعلم؟ كيف استقبلك ماذا طلب منك؟ ما أهدافه؟

ارتشف قهوته وأكمل ما بدأه ، كان اسمه الملقب بالمعلم زيفاً للإساءة لرجال العلم ، و اسمه الحركي أو شهرته ب (حرب) لهي أشد قرباً لطبع الدول الاستعمارية وسياستها في شن الحروب، وزرع للاستبداد ، وإلصاق التهمة بنا، بيته الذي يشبه وكر الثعلب وطبعا لم نصل إليه إلا بعد ألف تفتيش ومائة ألف بركة من شيوخ الطريقة ، في غابة ما بالموصل على ما اعتقدت وقتها وتبين أني دخلت بلدا أخر حليفا للناتو وداعم للإنفصاليين، مع أنه يرفع شعارات المقاومة في العلن، المهم وكأني أدخل مغارة علي بابا ، أول وكره درج وعلى كل درجة لوح مكتوب عليها أية من القرءان الكريم، أو حديث شريف لنبي الرحمة ..دخلنا قاعة الضحايا أقصد ما يسمونه دارة الضيوف فحنوا أيدينا ورشونا بعطر الجنة ، وبعد عدة دقائق دخل الملقب بالمعلم بلحيته التي لم

تعرف مقصا ولا غسيلا على ما أعتقد منذ عشر سنوات ووجهه الملفوف بخضاب هذه القذارة من الشعر ولا أعرف إن كانت ذقنه مخضبة بدماء ضحاياه أم أن الدم تحول لغة في شكله ومضامينه وشاربه المقصوص وفمه يبدو وكأنه كهف أجرد مافوقه منتوف يجعلك تتخيل قردا شوه وجهه فنتف الشارب وأبقى ذقنا لا مبرر لوجوده لكأنه فزاعة بشرية المظهر شيطانية المضمون،.. جلس الملقب بالمعلم زيفاً وبهتاناً، والذي يتبرأ منه علماؤنا الأفاضل ودينا الحنيف، على حصيرته المهترئة البالية إشارة لتواضعه ويداه مملوءتان بالخواتم الفضية ونظراته البريه البربرية تكاد تأكلني، وأمامه خريطة وفوق رأسه آية شريفة، بسم الله الرحمن الرحيم (واتبعوا السلم كافة) وعلى يمين العبارة الشريفة بندقية وفوقها خنجر ملعون ويكفيك الترتيب لتركب صورة مشوهة عن الإسلام على أنه أي المعلم ليس مسلماً، لتعرف نفسية وثقافة وعقول الصهاينة الجدد.

مد يده فقبلناها، وفمه مشغول بالتمتمة ومخالبه على رأسي، وبدأ الجميع يقبل رأسي بعدما رفع يده لأني أصبحت مبارك، وخوفي المشحون بالغضب كاد يفضحني ولخبرتي بالألاعيب، ناورت قائلا: التاريخ يشي بأن من يمكن شراؤه

بـامرأة أو مـال، فهـو ثقـة ورجـل لا طمـوح لديـه بسـلطة، وتباركـه الطريقـة الغربيـة الاستشـراقية فـي تزويـر الإسـلام بطريقـة تهـم السياسـة وتخـدم مصالحها الدونية، وقدموا عشاء زاهداً.

ومـع تهربـي مـن النظـر لـه، أحـس بنظراتـي الكارهـة لوجـوده، فغـادرت وجـه الصـباح علـى أن اسـتلم تعاليمه منه عبر وسيط.

لـم تكـن التـدريبات العسـكرية، إلا شـيء بسـيط مهمـا طورناهـا بالقيـاس إلـى قـدرات المحتلـين كمـا ظننـاهم بالبدايـة، وبالسـؤال المتكـرر شـرحوا لنـا عـن تـدريبات التـي تلقوهـا مـن الحلـف الأطلسـي النـاتو فـي أميركـا وبعـض حلفـاء النـاتو لمواجهـة الاحـتلال السـوفياتي لأفغانسـتان، ولـم يكـن المراقـب للأوضـاع بحاجـة ليـرى الخـلاف الكبيـر بـين عناصـر المقاومـة العراقيـة والفـارق كبيـر مـا بـين خـلاف واخـتلاف، فـالخلاف يعنـي إبـراز عوامـل التـوتر والصـراع، أمـا الاخـتلاف فهـو يشـبه نكهـات التوابـل التـي تزيـد الطعام لذةً.

هوية ملتبسة

(القتل ليس من ديننا ولا من تراثنا)

استرسل بخطابه، وقد تقدم الوقت فاعتذرت إليه ليرجئ كلامنا حتى قدومه من بيروت إلى دمشق، وكم تمنت لو يقفل راجعا ويكف عن الهروب، ولم تسمع في يومها التالي صباحا إلا بالباب يفتح، توقعت كل شيء إلا أن تراه، ولما رمقتها عيناه بعطش ومجون، تناحرت دموعها مع كبريائها وضمته إليها وبكت بشدة وترت أجواء البيت العربي كله.

قبلته، قدم هداياه، كان الملفت بهداياه أنها أثرية بغالبها وشديدة التنوع، مجوهرات وملابس وساعة يتيمة وبلبل بقفص مذهب وأصيص به وردة نادرة فاجأها فصمتت ولم تسأل، أخفى عنها سبب الغياب ويبدو أن مرضه العضال سيفتك به قريبا لذا نوع لها الهدايا حتى تبقى تذكرة لأكبر وقت ممكن.

وبعد الحديث الشيق تناولا الفطور وعادا لحوارهما وسألته: ماهي ماهية الملتحين ما مشروعهم؟

أجابها: ما نفع الكلام بدون قواعد الإعراب فالإعراب يميز ما بين الأفعال والأسماء بقواعد

مضبوطة وصحيحة، وجماعة التدميرية أو السلفية أفرغت الإسلام من مضامينه وحولته لأداةٍ سياسية يستخدم كآلة القتل للوصول للحكم.

فاسم الصلاة أفرغ من فعل الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وفعل الصيام لم يعد مطلوبا له مكارم الأخلاق، لا بل أفتى أحد الضالين بأن من المأثور أن يفطر الصائم عصرا، إذا ازدادت درجة الحرارة أو طال النهار.

تنشق الهواء أثناء إعدادها للقهوة الدمشقية المرة، دخلت ووضعت القهوة وكلمته والشرود ربان أفكاره، تعجبت ثم لكزته بيدها وقالت: ظننت أن اليوغا هي الغياب الأوحد عن الوجود ويبدو أن الشرود هو اليوغا السلبية التي نمارسها نحن المثقفون، قال متبسما: سأخبرك حين نصل للمكان المناسب في تقريرك عن التجارب النفسية التي عشتها.

سألته تلك التي اسمها لا أدري: كيف تمكنت من العمل أو بالأصح من مداراة الضالين؟

رد على سؤالها مستفسرا: ألا تعتقدين أن للزهرة الوحيدة بين أكوام الشوك معنى مختلفاً.

لم تكن تضاريس الاختلاف بين المشروعين واضحة، فكلاهما يظهر الولاء للوطن حرا كريما

معـافى، وتختلـف الطريقـة مـع أن الطـرفين يقـاتلان بالسـلاح ذاتـه ، إلا أن الإيـديولوجيات مختلفـة بشـكل كبير.

تغيـرت أمـور عـدة وظهـر بـين التـدميريين مصـلحون قلـة ، يخشـون التصـريح عـن رغبـتهم بإصـلاح مـذهبهم الـذي بـات جامعـا للنفايـات الفكريـة ويكتفـون بتلميحـات بسـيطة ، أحـدهم كـان رجـلا تقيـا يقـوم ليلـه ويصـون لسـانه ويتحـرى عـن الشـبهة ويكـره العنـف ويـدعو لوحـدة المسـلمين ، اسـمه بحـر ولطفـه كـان كنسـيم البحـر فـي ليـال الصـيف الخانقـة ، ودعـاني للعشـاء ولبيـت الـدعوة ، فـي مدينـة الموصـل ، لا تملـك إلا أن تسـأل ، مدينـة الألغـاز والأسـرار ، مدينـة العـرب والكـرد والفـرس والتـرك ، ولا يمكـن أن تحمـل هويـة إلا العربيـة ولكنهـا لا تتنكـر للقلائـد والقصـائد والفرائـد التـي حملتهـا مـن دول الجـوار ، لا أحـد يشـعر فيهـا بالغربـة ، فهـي تحمـل مفـاتيح التلاقـي والتواصـل بـين الشـعوب المتجـاورة ، دخلنـا بيتـه ولطالمـا لفتـت حارتـه الأثريـة انتبـاهي ،الطـرق المرصـوفة بالحجـارة القديمـة والجـدران التـي تمشـي بـالقرب مـن بعضـها مفسـحة القليـل مـن المسـاحة للبشـر والأزقـة الضـيقة، وبـاب بيتـه الخشـبي المطعـم بالنحاس والعبارة المنقوشة عليه تقول :

(علم الإشارة: أن تفهم التصريح بالتلميح وأن تميز الفاصل الصغير ما بين القبيح والجميل).

ولما دخلنا بيته، وجدنا خرافة أو كنز، لم نكن نتوقع هذه الفرادة التي تدمج العراقة والحداثة، فشكله رجل دين تقليدي بلبسه وعباداته وكذا شكل بيته الخارجي، أما مضمونه مفكر وناقد وباحث متعمق متخفي عن العيون، وكذا بيته.. أدخلني بعد العشاء غرفته السرية التي تحتوي آلاف الكتب واللافت حقا صورة لمجموعة شهداء كبار التي يخفيها بستارة عليها صورة الكعبة المشرفة، ولما رأيت كيف أخفى الصورة بالستارة سألته عن السبب، فقال عرف هؤلاء الشهداء أن الستار الديني لن يفلح في إخفاء حقيقة أفكارالرجعيين، ثم استطرد كلامه بأنه لم يكن ليكشف الستارة عن صورة الرمز الكبير لولا ثقته بحبي للعروبة الأصيلة.

وحينما جلسنا نتبادل الآراء حول كيفية عمل المقاومة والنجاحات الأخيرة التي حققتها ، قال بحر : المشكلة، أن الهوية التي يرتديها الملتحون ملتبسة ، فلاهي عربية صرفة ولاهي إسلامية صرفة ، والواضح أن العروبة كانت الحاضن الأشد حصانة وأمانة لحمل الإسلام وتعاليمه دون

أن ننكر أهمية الشعوب الأخرى ولعل ميزة العالمية والشمولية التي يحملها العرب بدينهم ، كانت متعددة الضرائب وأولى تلك الضرائب أن الرسالة المقدسة لا يحملها إلا الشعب الحي والثوري الذي يريد النهوض ويحفظ كرامة الشعوب الأخرى ، وهذا ما جعل العرب عبارة عن حامل مؤقت (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، لأنهم تركوا أهم الآيات (أقرأ) (الذين يأمرون بالمعروف) و(العافين عن الناس).

كما الاحتلال الأمريكي للدول العربية كالعراق وقواعده المنتشرة في بعض دول المنطقة، والاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وأجزاء من جنوب لبنان والجولان، ناهيك عن الاستبداد المطلق والظلم والفساد في العديد من الدول العربية، العصا السحرية التي جعلت من المجتمعات العربية خصوصا والإسلامية عموما مستنقعا ملائما وبيئة مستقبلة للاستبداد وداعميه.

حتى البرلمانات صورية والتي تغيب حتى صورياً أحياناً عن بعض الدول العربية رغم أنها في كل الأحوال وجدت أم لم توجد بلا عمل ولا مغزى مؤثر في الأحداث لكن ورغم أنها تمثل أدنى حد من الحرية والممارسة الديمقراطية للحكم ((لم تكن

موجـودة ولا حتـى اسـمياً لـدى الـبعض))، لأن الـنفط العربـي ممـول لآلات حـربهم وداعـم لتفـوقهم المـالي ويجعلهـم يتحكمـون بسـعر الـنفط العربـي بمـا يتفـق ومصالحهم.

استفسار يثير زوابع التحليل في تاريخ العرب

(ليس من حق أحد أن يجمل تاريخ أشخاص ليخفي تاريخ أمة)

بين بيروت ودمشق ستبقى رسائل الغرام

غرقـت فـي نومهـا مـع قـدوم الصـباح والنـاس بـدؤوا نشـاطهم، ينـام النـاس وتسـتيقظ هـي، هـي كمـن يسـبح عكـس التيـار طيلـة أيـام حياتهـا، ولكنهـا لـم تفكـر يومـا بهـذه الحالـة التـي تصـنف بالشـذوذ عنـد الـبعض وبـالتميز عنـد الـبعض الآخـر، سـألت نفسـها: هـل يمكـن للحـب القـديم أن يعيـد عقـارب التفكيـر لتعمـل وتنـاقش وتسـتنتج وتصـحح، هـل كنـت سـاعة تعمـل عقاربهـا عكـس المعتـاد؟ ربمـا كـان هربـا مـن شـبح الحب الأول.

حاولـت تجميـل صـورة زوجهـا الثـري مـع أنهـا تـدرك لامبالاتـه بهـا إلا عنـدما يرغـب بممارسـة الجـنس، ولكنهـا أدركـت أن تجميـل القبـيح يعنـي طمـس الجميل والحقيقة.

شـربت قهوتهـا الزكيـة الرائحـة والممزوجـة بمـرارة الهبـل ، نعـم الهبـل لا تتفـاجؤوا فهـي تعـرف أن الرجـال يقصـدون بيـروت للهـو، ولكنهـا تثـق رغـم شـكوك غيرتهـا المبـررة والـلا مبـررة بـأن صـابر رجـل مختلـف تمامـا ، ولـيس مـن صـنف رجـال الشـهوة ، فتحـت الشـابكة وولجـت صـفحتها الخاصـة علـى الفيسـبوك وكتبـت بمـا يشـبه الرسـالة ، مقـالا أرفقتـه بصـورة صـابر ، وهـذا المقـال بيـت مشـاعرها صـوب حبيـب تكـذب معـه أشـنع كذبـة بأنهمـا فقـط صـديقان: (لازال جامـدا كعادتـه صـديقي يقضـي سـاعاته غارقـا فـي بحيـرات شـروده وجبـال همومـه أحـاول أن أتسـلق أغصـان فكـره المتشـعب ،فـأهوي لقعـره الصـلب المتخفـي بابتسـامة لا أعـرف إن كانـت استحسـانا أم اسـتياءا، ولكنهـا وبـالرغم مـن كـل التفسـيرات تخفـي آلامـه، وأحـاول التخفيـف عنـه وتهـوين آلامـه وأحـاول وأفشـل، بـل أتحـول إلـى محتـاج لمعـين يهـون أمـر فشـلي ووقعـه فـي قلبـي فيهـون علـي مشـكلاتي بـدلا مـن أن أهـون عليـه ، صـديقي هـذا وبعـد أن تفتحـت عينـاي علـى وفائـه وإخلاصـه، سـألته لمـا يحـيط نفسـه بهالـة الغمـوض المتبسـم ،أجـاب قـائلا :أنـا فيلسـوف خلقنـي الله للجميـع ، ولـو أحببـت مشـاركة أحـدهم بسـري لحـال بينـي وبـين مـا أرسـلت بـه ، لأن حاصـد السـر مـن صـدر

الفيلسوف محبوبه الأعقل والأفضل بين مجتمعه ، وبالتالي سيضيع بقية الناس لأن المعلم الفيلسوف سيصبح ملكا لشخص يحفظ سره.

صدق صديقي فالفيلسوف يحزن حين يحب، لأن قلبه مملكة العالم وحديقته الأنقى والأجمل إحساسا وشعورا وذكاء وأحلاما وإبداعا) ولما أغلقت الموقع الأزرق، وتابعت مطالعاتها عن التاريخ السرياني القديم، وماهي إلا ساعة ورن هاتفها، أجابت ألو! رد صابر مرحبا كيف الحال؟ ممكن نتواصل ع الفيس أجابت ممكن، أغلقا الهاتف.

تأخرت متعمدة بضع دقائق حتى فتحت الموقع الأزرق، في الوقت الذي انهالت فيه مئات التعليقات التي تسأل من هو هذا الصديق؟

أخبرته أنَّ هناك كثر متلهفون لمعرفته، فردَّ: إنَّ المبكي والمؤسف حقا، أنه بالرغم من انفتاح العالم وتقدم العلم والبحث العلمي إلا أننا لا نزال على فهم وتعامل لا يحترم مبدأ الخصوصية، نحن غارقون في تفاصيل لا تخصنا وتابع خاتما حديثه:

(ليس من حق أحد أن يجمل تاريخ أشخاص ليخفي تاريخ أمة).

الجذور التاريخية للعنف والتسيس

(أخطر ما في المجتمعات أن يتحول ضمير الأفراد لما يقوله شخص ما)

قالت له: عدني أن تتجنب الحديث بهذه الطريقة، فقال: لا لن أعدك، فقد تأخر الليل ويريد أن ينام، ثم كتب على صفحة الموقع الأزرق ما يلي:

الحمد لله فالتاريخ يبقى منطقيا ،لأن المنطق: هو الفيصل ما بين الزيف والواقع في السرد التاريخي، والمنطق بما يحتويه من عقلانية وفهم يشابه بالدور الذي يقوم به في مختلف مناحي الحياة دور عقارب الساعة لتحديد الوقت ولكن المشكلة عندما يصبح الناس بجميع مواقعهم المهنية والعلمية عبادا لدين يحول الدين من رسالة إنسانية تجعل من الإنسان غاية القيم إلى امتيازات فردية تحول كل شيء لقيمة مادية ووسيلة لبلوغ مآرب بغالبها لا إنسانية وهي امتيازات ممن لا يملك لمن لا يستحق وتمنح لمن يفتي بما يرضي السلطان لا الله، ومما يجعل من الحالة وباءً فيروسيا شديد الانتشار غياب الوعي والجهل بالحقائق ورفع قيمة الأفعال العنيفة في التاريخ والسير ، لتحول حروب القبائل المخزية والمخجلة كحرب داحس وحرب البسوس إلى ملاحم وتخفي

بالوقت ذاته قصص الحكمة والعبرة في سير الأولين، ومن هنا كانت اللعبة التي عمل عليها الاستعمار الخارجي المدعوم بالزعامات الراديكالية الداخلية والتي وإن استحدثت شكلا من المدنية بقيت نفسها لم تتغير بطريقة الإدارة والحكم ، اللعبة التي قامت على أساس إفراغ العقول من المنطق حتى وإن وصلت لأعلى العلوم ومن ثم ربط الوضع العام للبلاد بجلالة السلطان الذي يحكم بطريقة التاجر والمقامر بأغلب الكيانات العربية.

أمتنا العربية الإسلامية التي قال بها الرب الجليل في محكم التنزيل: بسم الله الرحمن الرحيم (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) صدق الله العظيم.

كانت أحد أهم مسارح الحضارة الحافلة بالنشاط والإبداع، لأنها جعلت الأخلاق قيمة القيم وقد تجسدت في سلوكيات علمائها كالشافعي (رض) وغيره، فالتاء في أفعال مثل (تأمرون، تنهون، تؤمنون) بالآية الكريمة السابقة دلت على الاستمرارية والتواصل مابين فاعل الخير وتارك

الشر وبالتالي يصبح الطريق معبدا للإيمان بالله، فكما ورد بالأثر (تارك الشر كفاعل الخير).

ما حصل بهذه الأمة ، كان التحول من الاعتماد على جيش من العسكريين العرب زمن العباسيين إلى قادة ترك زمن المعتصم وفرس زمن المأمون ، لم يدافعوا عن البلاد بالشكل المطلوب لغياب الحاكم العربي المرهوب الجانب والشجاع ولذا فإن غياب العرب عن القيادة العسكرية استتبعه غيابهم عن القيادة السياسية القوية والموحدة للبلاد الممثلة بالخليفة كمنصب سياسي .، ولكن المشكلة كمنت في التفاصيل ،فالخليفة احتكر منصبا له ولأهله ، خاصة وأن الأخوال من الفرس لبعض الخلفاء تغلغلوا في الدولة ، و حولوا مكانة ((أمير المؤمنين)) إلى منصب هدفه الدلالة على أهميته الروحية كشخصٍ وكأنه طور فكرة الفرعون الإله المصري ليكون الخليفة السياسي المؤيد بكتاب وسنة الله ورسول الله ، بالرغم من أنه في الوقت ذاته يكافح كل ما بقي من عترة الرسول الطاهرة لكونهم محبوبين شعبيا من المسلمين في كافة الأصقاع وبالتالي فهم خطر على (العروش الواهية) أمام سلطان الرسول وآله وصحبه على قلوب وأفئدة الناس.

ومن هنا بدأت الشخصية العربية خصوصا والإسلامية عموما تعاني من انفصام بالشخصية بين اتجاهين عامين في الإسلام الأولى تأخذ الدين عن الرسول وأله عليهم الصلاة والسلام والثانية تأخذ الدين عن الرسول والصحابة وضمن كل مدرسة انشقاقات أخرى ، فمدرسة الصحابة الكرام أخرجها بعض السلاطين عن مضمونها بشرائهم الذمم من الأولين ليغيروا ويفسروا الأحاديث النبوية الشريفة بما يثبت الباطل والزيف، ويلغي نور بيت النبوة ، فهم جعلوامن المذهب الإسلامي أيا يكن توجها سياسيا.

الغبن لا يجدي والاستعمار لن يستمر

(ليست المشكلة في مفترقات الطريق بل في توجهات من يسير)

النزيف الدمشقي ٢٠١١

النوم العميق يشعرني بأني أولد من جديد عندما أستيقظ، قاتلت طيلة حياتي من أجل مستقبلي، ولم يكن لنجاحاتي الصحفية جزء من بريق أول عنوان نشرته عنك يا صابر، توافدت اتصالات تستفسر عنك، وعما لديك من معلومات هددت بالقتل ولكني سأكمل المسيرة.

أكملت قولها سيدي لماذا تريد الحديث عن الثورة السورية؟

دعنا نتحدث عنها في كتابنا القادم، إن لم يقم العدو بقتلنا، ضحك كلاهما.

حسنا فلنكمل الحديث عن العراق.

لكني سأكلمك غدا فاليوم عملي يكاد يكون غواصة تهبط بي إلى أعمق نقاط البحر.

تودعا وأغلقا الهاتف.

رغم تودد زوجها وأولادها وطلباتهم المتكررة بمغادرة سورية لخطورة الأوضاع الأمنية فيها، لكنها أبت ووضعت شعاراً على كنزتها يقول :(أمهات سورية قدوة للعالم، وكلنا أمهات لرجال الوطن).

أخيرا قالت لزوجها وأولادها: أليس غريبا؟ بلد محاصر ومعاقب وهدد من الولايات المتحدة كإيران يتقدم في كل المجالات ودول عبدة ومستعبدة للولايات المتحدة الأمريكية تدخل موسوعة غينيس بعدد الحفلات وأطباق الطعام ... لماذا لا تشعر الولايات المتحدة بعظمتها وسلطانها إلا لدى الأعراب! ليست المشكلة في الطريق بل بقصر نظر توجهات من يسير عليه.

المدرسة البديلة فشلت في تعبئة الشباب

(من ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد) الإمام علي.

العراق ٢٠٠٤

سألته من هي المدرسة الثانية وما دورها؟ في صد الاستعمار وكبح جماح المهجرين

القوميون المنقسمون لتيارات عدة تدعي أنها تسعى للوحدة العربية وتختلف في مراحل تنفيذ الهدف ووسائل التنفيذ.

برز حزب البعث العراقي والقوميون السوريون والناصريون، لكن عراق ما بعد الراحل الشهيد البطل صدام، كان عراقا ممزقا وطائفيا والحزب بدل أن يوحد الجميع حول الوطن فرقهم فكان الاسم حزبيا والمضمون طائفيا، يضاف لذلك ما قامت به دول الجوار من تعدياتٍ على أمن وحقوق العراق وسرقت ثرواته تحت مسميات وشعارات رنانة خالية من أي مضمون.

كل ما سبق وقلته وسواه، أدى لولادة أحزاب ممسوخة لا تمثل حقيقة ما يريده الشعب إلا من ناحية الشعارات.

كان بحر منتميا للإخوان المسلمين، ومنتميا للقوميين العرب وكان يناقض أفكار الإخوان علانيةً وينتقد فساد القوميين سراً.

لقد طرح القوميون أفكاراً عديدة تتميز بقدمها وعدم ملازمتها ومسايرتها لروح العصر والتغيرات الجارية في المنطقة والعالم... ففشل المشروع القومي بتحديث المجتمع العربي وتحرير الأراضي العربية، أعطى المشروعات البديلة على اختلاف مشاربها وتوجهاتها بوابة أوسع للتحرك وإسقاط ما بقي من معالم قوة الأمة العربية...

فالوحدة العربية أمر طبيعي وواقعي، ولكن وبما أن العصر عصر تكتلات اقتصادية، كان على الطرح أن يتحول من الوحدة العربية للتكتل الاقتصادي الذي يضمن رضى الجميع لأنه يعني حياة رغيدة ورفاهية أكبر أما الشعارات الأخرى كالحرية فهي مطلب أمريكي غربي إسرائيلي لدول العالم فقط في منطقتنا بزعم أنظمة القمع والاستبداد.

وظل بحر على خط وسط بين طرفين ،وقد شرحت لك عن أفكار الإخوان و بعض ممارساتهم....أما القوميين فقد دب الفساد والرشوة

فـي صـفوفهم واختـرقتهم مخـابرات العـالم وحـرفتهم عـن القضـية الأسـاس قضـية بنـاء الـوطن العربـي الكبيـر والمحـرر مـن طنجـة حتـى جـزر أبـو موسـى ....مـرورا بالقـدس الشـريف إلـخ، ثـم إن فراغـا كبيـرا تركـه رحيـل كوكبـة مـن نجـوم القوميـة العربيـة ممـن غيبـوا عـن الحكـم، ولـم يسـتطع أحـد ملـئ الفـراغ النـاجم عـن غيـابهم بسـهولة ...أضـف لـذلك أن الحكومـات التـي حاربهـا الغـرب مـن جهـة منعهـا مـن التطـور العلمـي خصوصـا ، وخلـق لهـا مشـكلات داخليـة مـن جهـة ثانيـة ، لـم تسـتطع علاجهـا بطريقـة عصـرية فـزادت مـن ضـعف الانسـجام والـتلاحم بـين مكونـات الـوطن الواحـد وهنـا نؤكـد أن الموقـع الوسـط جغرافيـا للـوطن العربـي وسـماحة ووسـطية الإسـلام ورحمـة الفـاتحين العـرب ، أدت لـدخول عناصـر غريبـة إلـى بعـض أقطـار الـوطن العربـي ، منهـا مـن انـدمج ومنهـا مـن بقـي بـين بـين ، فـالعراق كسـورية ولبنـان ودول المغـرب العربـي كانـت منـارا للحضـارة ومقصـدا للعلـم والعلمـاء عبـر التـاريخ، فـلا يوجـد قطـر مـنهم إلا بـه عـدة قوميـات ومئـات الطوائـف ومـع أن وجـودهم نقطـة قـوة للـبلاد ودلالـة علـى حضـارة أهلـه إلا أن غيـاب خطـط التنميـة الاقتصـادية والاجتماعيـة وحداثـة بعـض الـدول فـي الاسـتقلال والتعامـل مـع هـذه الملفـان مكـن الاسـتعمار

مـن الولـوج لقلـب المجتمـع العربـي وتفكيكـه...فما اسـتغرقته بريطانيـا فـاق العـام لتحتـل مـن البصـرة باتجـاه بغـداد فـي القـرن التاسـع عشـر ، لـم يسـتغرق شـهرا فـي القـرن الواحـد والعشـرين مـع قـوات الاحـتلال الأميركـي ، مـع العلـم بـأن عـراق القـرن التاسـع عشـر كـان أضـعف بكثيـر مـن عـراق القـرن الواحد والعشرين.

فسـقوط بغـداد بيـد قـوات الاحـتلال الأمريكـي، كـان بنتيجـة حصـار ظـالم دام مـا يزيـد علـى ثلاثـين عامـا ترافـق الحصـار بسياسـات طائفيـة وقصـيرة النظـر للحكومـة العراقيـة آنـذاك، ممـا سـاعد بـدخول الغـزاة للعراق بسهولة.

والمهـم أن القـوميين العـرب فـي العـراق فشـلوا، أولا لأنهـم أرادوا إعـادة أخطـاء الحكـم السـابق لصـدام الـذي يرفضـه مكـون كبيـر مـن العـراقيين وثانيـا لأنهـم مشـوا بطريـق التمييـز العنصـري والطـائفي البغـيض بتوجيـه مـن بعـض الاسـتخبارات الإقليميـة التـي دائمـا مـا تقاطعـت مصـالح بعـض أنظمتهـا الرجعيـة مـع الامبرياليـة العالميـة لكـون جميـع أعـداء الوحـدة العربيـة يخشـون قيـام دولـة العـراق الكبيـر القويـة والموحدة والمؤثرة في أحداث المنطقة والعالم.

شرح لي بحر أسماء وأماكن تواجد القياديين القوميين، وأن الملقب بالمعلم زيفاً للإساءة لرجال الدين والعلم، واسمه الحركي أو شهرته ب ((حرب)) لهي أشد وأخطر المؤامرات التي تهدف للإساءة لرجال الصلاح، وزرع للاستبداد، طلب منه دمجي بالقوميين لأكون عينا له على أفكارهم واتجاهاتهم.

قال لي بحر : أتعرف لي معه خمس سنوات ولا يثق بي ، فانتبه ستبقى مراقب، عدت للمعسكر وتوجهت للمكان المطلوب وتعرفت ببعض القادة العرب القوميين وقد قدمني لهم أحد أتباع الملقب بالشيخ زيفاً للإساءة لرجال الدين والعلم ، و اسمه الحركي أو شهرته ب (حرب)، تعرفت بهم ، وكانت مكاتبهم مملة ومليئة بالصور والشعارات تتهدل بطون القياديين من كبر كروشهم وجلهم أصلع ويضع كتبا عدة على مكتبه...مليئة مكاتبهم بالروتين وعقولهم بخطط أكبر بكثير من إمكاناتهم وأغلب المخططات على الشعب وحده أن يدفع ثمنها فهم لا يمكن أن يقدموا ولا قرشا واحدا .

قرأت بعض شعاراتهم وكم داعبتني ودغدغت مشاعري كلماتهم وخطبهم الحماسية واسترجاعهم لبطولات العرب في حطين وعين جالوت ورغم

تقدمهم فكريا بآلاف السنين الضوئية على المشروع التدميري الاستعماري.

فمن أفكارهم ...الوطن العربي ملك للعرب والمقاومة واجب شرعي دفاعا عن كل قطر محتل أو يتعرض لاحتلال والوطن فوق المذاهب والطوائف والأحزاب والمناصب ...

قاطعته وهل في أفكارهم ما يغضب.. أجاب صابر إطلاقا.. ولكن دعيني أكمل، حسنا أكمل.

بعد اجتماعات استمرت أسبوعا تم تكليفي بمهمة الذهاب للبصرة لإيقاظ الثورة ضد الاحتلال، ثم وبعد فترة قصيرة، قرروا إيفادي لجبل سنجار لتمكين جيب للمقاومة والانطلاق منه صوب تحرير الموصل وبالفعل أخبرت موفد الملقب بالشيخ زيفاً للإساءة لرجال الدين والعلم، واسمه الحركي أو شهرته ب ((حرب))، برحيلي للمكان المقصود فسلمت رسالة شفهية بأن أحد مريدي الشيخ سيتواصل معي والسر كلمة قادمون.

تم تجميع المناضلين واستقدام السيارات اللازمة للتوجه صوب المكان المحدد وبعد مسير خمس ساعات توقفت السيارات وانقطعت طرق المواصلات، تابعنا السير راجلين بطرق معقدة ووعرة كعقول الأعراب ولم يكن مسيرنا إلا ليلا

حتى لا تقصفنا طائرات العدو.. والحقيقة لم نكن نعرف العدو من الصديق لا في الأرض ولا في السماء.

وصلنا جبال سنجار، استقبلنا أحد الرجال واسمه قتادة.

كان رجل القوميين الأول، ذو لحية شقراء خفيفة وعيون زرق، وخبرة واسعة بالسلاح وتكتيكات القتال، يبدو أنه لا يثق حتى بعينيه، وكم حاول ذم المهجرين أمامي ولكني كنت أقول المهم خروج المحتل وقد طلب مني أحد قادة القوميين أن أكون عينا له على المهجرين في المعسكر فوقعت فريسة الشك المطلق بين جناحي المقاومة.

قالت: كيف تمكنت من لعب دورٍ مزدوجٍ، فقلت لها :(كنت منتميا للطرفين فمع القوميين أعامل على أني أخرس وثلة هم الذين يرونني ولكن لا أتكلم البتة وأدعي الخرس وإنما أتواصل معهم كتابة ومع أتباع المشروع السلفي كنت أتكلم ولكن لا أحد يسمح له برؤيتي، وهكذا كنت همزة الوصل بين المشروعين ثم قرر القوميون بعد مهمة التدريب بسنجار إيفادي لبغداد لتحريك المقاومة الشعبية، ولما وقع الصراع بين المشروعين، جاء مشروع جديد مدعوم من دول

الجـوار ولكنـه فشـل بتعبئـة الشـباب فوقـع العـراق ومقاومته وشعبه بفخ الفراغ الهدام.

الأبطال لم يولدوا للحياة بل للبطولة

(القدر رحمة من الله أياً تكن نتائجه وتفاصيله)

بين باريس وبيروت ٢٠١٢

اسـتيقظت لتقـرأ جريـدتها الصـباحية، وجـدت الياسمينة ذابلـة فسقتها مـن مـاء بحـرة البيـت العربـي، رن جـرس الـدار، دخلـت الخادمـة ومعـالم السـعادة علـى وجههـا، فـرغم أنهـا لا تجيـد القـراءة ولكنهـا أحبـت شـراء هديـة لسـيدتها، فوجـدت صـورا لصـابر على إحدى المجلات الأدبية.

أخـذت المجلـة ولـم تنتبـه لصـورته إلا بعـد أن قلبتهـا، كـان العنـوان سـعيدا والتفاصـيل مأسـاوية، فـالعنوان كان (أسرع طريق للخلود).

لقـد تبـين أنـه كـان يتعـالج لـدى أحـد الأطبـاء اللبنـانيين الخبيـرين بعلـم الطاقـة والأعشـاب لعـلاج السـرطان، ثـم سـاءت الحـال فسـافر علـى جنـاح السـرعة إلـى باريس للعلاج.

دخلـت غرفتهـا وأغلقـت البـاب، تمالكـت أعصـابها ووجـدت البكـاء معيبـا، فالقـدر رحمـة أيـاً تكـن تفاصـيله، ومـع ذلـك توقـف تنفسـها واضـطرب

مزاجها، حاولت البكاء فعجزت، كسرت الأواني، سألت الخادمة ما لخبر؟

قالت لها: عودي غدا اليوم عطلة، ولكن - قاطعتها نفذي ما قلت بسرعة قبل أن تخرجي، لا أريد اليوم رؤية أحد.

لقد كتب على صفحة المجلة الأولى: (لكل رجل من اسمه نصيب، صابر يقهر بصبره المرض الخبيث).

أخذت عيونها المدورتين حماما بكائيا ملحميا، أثار شجرة الياسمين وعصفور الجيران والعريشة الغافية على سطح المكان وسقطت قشور من الحائط .... حتى الحائط كان يبكي معها، ما أجمل الدمع المتحد مع كل ما حوله! لقد بكى البيت العربي بكل أجزائه وجيرانه وتفاصيله معها، لكأنه حصان عربي أصيل يجر فارسه إلى داره كي يعالج من أثر صدمة ... تلقح العروبة البيت والحصان فيحمل أصالتها، عجيب هذا الإنسان الذي لا تؤثر به العروبة وهي تجري في رواسب دمه ومورثاته.

العروبة تزرع الأصالة في كل شيء إلا الأعراب تعجز عن وصفهم حتى.

سألته مساء، كيف الحال؟ فرد بيروت جميلة!

قالت: لقد عرفت أنك بباريس تتعالج وكم وددت لو سمحت لي أن أكون معك حتى مرضك تواجهه وحيداً وأنا قربك، آه منكم معشر الرجال!

أغلقت السكايب والغضب والحب والتشنج والخوف اقتسموها أربع أرباع، ربع يغضب حزنا على الحبيب وربع ثانٍ يحب رجولة الحبيب وربع ثالث يتشنج من فكرة موت الحبيب وربع رابع يخاف ألم الفقد والغياب الأبدي.

طلبت رقم المجلة التي كتبت عن مرض صابر، ثم بعدما تبينت خطورة الموقف، أخذت اسم الطبيب المعالج والمستشفى وفندق إقامة صابر.

ولم تنم ليلتها، فقد حجزت بالساعة الرابعة صباحا لباريس، وظلت تبحث على الشابكة عن أعراض وأسباب السرطان وأخر اكتشافات العلم لعلاجه..

صعدت الطيارة، وألمها يطير فوق الطيارة، لم تكن تشعر بشيء إلا بالتشاؤم والخوف من المرض ونتائجه على صحة صابر.

غفت قليلا فتهيأ لها، كما لو أن الطيارة نعشها يمشي بالهواء ليعانق كبرياء وحرية رجال الحق، شعرت كما لو أن العميل المختار يمسك بيديها ويشد على كتفها و يخبرها بأن الأبطال لم يولدوا للحياة بل للبطولة (القدر رحمة من الله أياً تكن

نتائجه وتفاصيله) وصلت المطار وقد تذكرت إحدى أهم كلمات المختار في حلمها:

(الخلود للأبطال في حياتهم قبل مماتهم).

فنحن العرب لا نكرم إلا الموتى لأن حسد الأحياء من الأبطال الأحياء يؤخر تكريم الأبطال (ما ازدري نبي إلا في بيته ووطنه) لعل الإنجيل ثاني أهم الكتب التي تصف العرب.

كان مطار باريس، حقلة زهرٍ يفوح شذاها في كل مكان أو بركة عطر تجتذب الروح إليها، وزجاج الردهات وورود الزينة والموظفات الفاتنات والموظفين الأنيقين، قالت: إن أفضل فنادقنا ذي الخمس النجوم ليس بفخامة ورتابة هذا القصر المسمى مطار باريس، مع أن الإنفاق العام عندنا أعلى ولكن الرتابة والثقافة لا تشترى بأموال العالم.

جلست وقد تناست همها في قهوة فواحة بقلب المطار. كتب على أفخم أقسامها بالفرنسية

(قهوة عربية أصيلة).

قالت رباه حتى الغرب يضع خلف كلمة عربية كلمة أصيلة، فهو ينسب الأصالة للعروبة، نعم نعم العروبة أصيلة، ليت الأعراب يدركون وليتهم

يؤمنون ولكنهم كما قال الرب الجليل في محكم التنزيل: (وأجدر ألا يعلموا حدود الله) أفٍ لأمة يمسك جاهلها أمر مستقبلها ومصيرها.

استقلت السيارة ومرت بشوارع باريس التي تبدو وكأنها بيوت أثرية، تنشر بضائع أثرية للسواح ليشتروها، ولم تنتبه للكثير من التفاصيل البعيدة فالطريق الجميل أسكت جوع بحثها عن الجمال، مرت بشارع الشانزليزيه الطويل والعريض، ولكن صابر كان يسرق ثقافة تذوق جمال الأمكنة منها، دخلت المشفى وتاهت وغامت رؤيا عينيها، صرخت رباه، صعق صابر. قبلها وجلست هامدة بين يديه، زارها الطبيب وهي تتجمد، لم تكن تهدأ حتى يعود صابر للجلوس بقربها، استيقظت وصابر يغط بنومه قرب سريرها.

قالت كيف لم أنتبه قبلا، فوجه صابر أسمر كالقهوة العربية وريحه كالياسمين العربي وأصالته كالحصان العربي كل تفاصيله عروبة.

قال لها وعيناه مغمضتان وقد بدا أنه لم ينم، لا تخافي حبيبتي، فعمري مكتوب وقدر الأبطال حياة البطولة لا بطولة الحياة، تذكرت كلمات طيف المناضل الكبير عمر المختار

عادا معا في اليوم ذاته لبيروت على متن طيران السورية، وقد أخذ إبرة العلاج واطمأن أن الوقت متسع أمامه لينهي رسالته علها تصل للأجيال القادمة.

المقاومة كانت بجلها ردة فعل

(الحرب ليست لعبة والسلام ليس أمنية وما بين اللعب والأماني تضيع أمم وتولد أخرى)

بغداد ٢٠٠٤

وبعد الراحة الطويلة التي استمرت ثلاثة أيام في بيروت، طلبت منه، إكمال تراثه البطولي ومعلوماته القيمة عن المقاومة العراقية، فأكمل متابعا سرد إفادته عن تلك الفترة.

دخلت مدينة بغداد، التي كانت ولازالت معشوقي الأبدي، تخيلت أبو جعفر المنصور على صهوة حصانٍ كميت، يحدق بي ويعاتبني، يقول لي أهذه المدمرة مدينة السلام، ورثتم عنا بلاد عزيزة فكيف قبلتم الذل والتخاذل؟

لم أجد جوابا استفقت لأجد نفسي أفتش بعناية فائقة، اخلع ثيابك أفلتوا الكلب، أين بطاقتك الشخصية؟ كان المترجم لقوات البغي.

اعتذر قائلا هذه المنطقة الخضراء، فقلت لم نكن محتاجين منطقة خضراء فالعراق على الدوام كان أخضرا ولكن احتلالكم لم يترك به أخضرا ولا يابس نظرت الجسور المدمرة والطرق المحفورة وأصوات الانفجارات.

حزنت أشد الحزن، فاقتراب الفرات من دجلة، لم يكن إلا زواجاً بين نهرين، لتكون بغداد كحدقة عين وطفل بار بين النهرين.

الطبيعة تحمي بغداد والأعراب يدمروها، سحقا للأعراب!

ريح المتنبي وشعره واعتداد العرب بأنفسهم، ومحبرة دار الحكمة تخيلت كما لو أنها هبت كطاعون يجتاح كل شراييني، كل العراق ينبض عروبة، وهذا الأمر لا يحتاج لذكاء ونباهة كبيرة.

غنيت من عذابي ومن حزني على أشلاء العراق التي أصبحت في كل دول العالم، ودخلت أحياء الأعظمية حيث يتركز أبناء طائفتي، وزرت أحياء الشيعة والكرد والتركمان والشركس والحقيقة لمست رغبة جماعية بالخلاص من الاحتلال.

ولكن المستعمر العميل نجح بإدخال الوباء الطائفي في عقول الكثير من المناضلين، وخاصة المنتمين للنظام السابق والمدعومين من الولايات المتحدة

الأمريكية بغطاءٍ إقليمي وعربي للأسف، والهدف المعلن كان بتر اليد الإيرانية في العراق، وتحولت المشكلة من مشكلة مع محتل لمشكلة مع جارٍ قويٍ وعريق، إذ بدأ المسلمون المهجرون ينظرون للمسلمين الشيعة والأكراد ومخالفيهم من الإسلام السنة على أنهم أتباع إيران ويحل قتلهم.

لقد أدخلت المخابرات الخبيثة للغرب وللصهاينة العرب كل العرب في حرب داحس والغبراء الجديدة، ولكنهم أخذوا يهدؤون من الحرب ويحولوها لعنف طائفي ويقودوا المجرمين من دول العالم تحت مسمى حرب المحتلين ومن ثم يتلقاهم الملقب بالشيخ زيفاً للإساءة لرجال الدين والعلم، واسمه الحركي أو شهرته ب ((حرب)) ويبث الأفكار المتشددة والتكفيرية بعقولهم وهكذا تحولت بندقية المسلم لصدر المسلم وأصبح نخوة العربي خنجر بظهر شقيقه العربي...

وهكذا لم تكن عملية زراعة للاستبداد بعيدة عن عين الاحتلال، بل وبمباركة منه، بعض دول المنطقة ظنت الحرب لعبة وتراخت كون الدم النازف بمعظمه عراقيا واللعب بالدماء أقذر وأخطر أنواع الحروب ففقدت المنطقة كاملة الأمان والاستقرار تدريجياً، ولو لم يكن جريمة

بعض دول الجوار إلا وقوفها متفرجة على ذبح العراق، لكان كافٍ لتجريمها.

وبدأ التنظير والمؤتمرات لبحث سبل السلام والاستقلال ولكن أحدا لم يكن جادا ولا ضامنا للسلام.

ورغم كل ما قلته لك، فشل الاحتلال ودول التسول باسم القضية، لأنهم لم يخوضوا الحرب بجدية ولا تقدموا للسلام بشجاعة، فضاع ما بقي لهم وتحول العراق بمسلميه السنة والشيعة معارضا للاحتلال ودول الفتنة والتشدد والشعارات والتسول ...

لكن لم تؤت المقاومة أكلها لأنها كانت ردة فعل لا فعلا أصيلا بسبب التشويه الذي نالها من دول التكفير والتشدد، فحتى عادت بندقيتها لقتال التشدد والاحتلال، كان أغلب العراق قد دمر وهجر سكانه.

وهنا قمت بدور كبير لدعم القوميين لدرجة كادت تودي بحياتي، إذ كاد أمر قتلي يصدر من المهجرين، لولا استدراكي وعملي بالخفاء لكنت بين شهداء المقاومة.

زرت كبير عشائر المنطقة الوسطى، وسيف مقاومتها وعميد العشائر، وقد تحولت بندقيته صوب العراقي المسلم لا الغربي الغازي للبلاد،

سألت أتباعه أن يبلغوه رغبتي بلقائه وبعد شهر تم السماح لي بلقائه.

سكن العشيرة يبدو وكأنه موقع تصوير لمسلسل هوليودي من العصور الوسطى ، فطرقه بين رملية وحجرية وتندر البيوت العصرية ، تنتشر الخيام كقباب صخرية تملأ سهلا واسعا أمامنا، الأغنام والبشر يسيرون جنبا إلى جنب ، بندقية الرجل وخنجره وسيارته أهم من عائلته وماله واسم عشيرته يفوق البطاقة الشخصية بأهميته للتعارف فيما بين البدو ، الكل يسعى لرضا شيخ العشيرة ، وصلنا بيت الشعر الأجمل والأكثر كثافة بحضوره ، خلف بيت الشعر أربع خيمات يحرسها كثير من الرجال المدججين بالسلاح، الأولى كانت لنساء المعلم ويبدو أنهن من مختلف الأعمار وفوق التسع نساء ، والثانية للماشية والثالثة للمال والذهب والرابعة لنوم الضيوف.

دخلت وقد امتلأ أنفي بغبار الجو وانتشر عطاس حساسيتي ليملأ بصوته الخيمات الأربع المحيطة ولأسمع ضحك متواصل، شعرت وأنا أرى والأطفال وبعض النسوة والرجال يتحلقون قرب بيت الشعر ليروني وكأني نجم سينمائي كبير.

انتظرت ما يبرد حرارتي ولكن جاءتني قهوة مرة مقذعة وحارة، فشربت الكوب وأغمي على من الحرارة، ولم أستيقظ حتى اليوم الثاني، وجدت إبريقا من الشراب وقد زالت حرارتي ومطعما طيبا، الحقيقة كرمهم لا يوصف ولو قدر الله لعقول البدو أن تكون كبيرة بمقدار كرمهم، لساد العرب سلم الإنجازات العلمية العالمية في مختلف الميادين.

دخلت على المعلم، سألني بما زودك القوميون، فكتبت كوني أمثل الخرس بين القوميين، بندقية العربي ضد المحتل فقط.

فقال لي لكن بعض العرب الشيعة يريدون حكمنا باسم إيران والتسلط علينا، فكتبت لستم ضعفاء وهم ليسوا أغبياء ليستخفوا بقدرتكم وأهميتكم في تدعيم استقلال ووحدة العراق، رغم خطورة المشروع الصفوي.

كتبت سائلا لما تقاتل المحتل: فقال لي قصة طويلة، فأصررت عليه أن يرويها فنادى ثلاثة رجال وطلب من كل واحد أن يذكر لي سبب مقارعته للاحتلال، الأول كان شيخا أشيب مهيب، يبدو عليه التقدم في العمر والعز والوجاهة، يضع على صدره صورة لثلاث فتيان وفتاة.

كتبت له على ورقة، لماذا تقارع الاحتلال؟

قال اسمي حرب ، أنتمي لقبيلة سين ، وكنت أعيش آمنا بعراق ما بعد الاحتلال ولكن لم أكن مرتاح ، وكنت ككل العراقيين متوجساً خيفة من الاحتلال ، بقيت طيلة حياتي أدرس الآثار وبنيت متحفي الخاص بي ، سعادتي كانت فوق أي وصف بالخلاص من النظام البائد ولما جاءت شركة حراسة أمنية للأنبار أدركت أن فيها إسرائيليين بحكم أننا نتعلم العبرية كمختصين بآثار الشرق القديم والكارثة أن طيران أميركي قام بقصف المتحف بعدما نهبه الإسرائيليون للتغطية على جريمتهم، صمتت بعدما اعتذر لي الحاكم العسكري ووعد بالتعويض ، ثم دبروا محاولة لاغتيالي ، حصدت أرواح عائلتي ولم يبق غيري لأنتقم فعدت لعشيرتي طالباً للثأر، الثاني قال اسمي عصام ، تعرضت للاعتقال والاغتصاب والتعذيب بشتى الوسائل في معتقلات الاحتلال ، والحقيقة أن صمته كان يدل على إنسان يعاني مشاكل نفسية ، فحزنه وهزاله ورجفان يديه و تلعثم نطقه ، فقال أردت أن أنتقم وأن أحرر كل المعتقلين .

الثالث قال: اسمي هادي، كانت زوجتي أميرة جميلات العراق كله، ولما كان الأذناب في الموصل يرون جمالها ويسعون إليها بكل الوسائل، انتظروا مغيبي عن الدار لأعود فأجد ابني وزوجتي مقتولين بعد حفلة اغتصاب جماعية، فعدت لعشيرتي طلباً للانتقام.

وهكذا كما رويت لك لم تكن مقاومة بأهداف تتجاوز أهدافاً شخصية، وهذا ما ترك أثرا كبيرا على المقاومة وجعلها بموقع الرد لا الفعل من ناحية وجعل قيادتها للثأر والمشاعر الغبية لا للحكمة والمشاعر الوطنية، فكل شعور شخصي أو ثأري في القضايا الوطنية هو بأقل تقدير شعور غبي إن لم نقل عميل لصالح عدو سواء كان بحسن نية أم بسوء نية

تناف بين المسموع والحقيقة

(الشعب هوية الأرض)

بيروت ٢٠١٢

كلنا نشعر بأننا لا نزال أطفالا، لأنها المرحلة الوحيدة في حياتنا التي نلقى فيها حبا واهتماما كبيرا ومن الجميع بدون مقابل، هذه الحال حال اللبنانيين وبخاصة سياسيهم، فمراهقتهم تتجاوز أحيانا مقدار التوقع، وما خلا العقلاء ألقليلي التأثير

فـــي مجريـــات الأحـــداث لبنانيـــا، لا يمكـــن أن تـــرى نضوجا في قرار أو إدارة.

تتلقـى بيـروت وساسـتها الـدلال، فـإيران لهـا مـدللوها وللســعودية مــدللوها ولفرنســا مــدللوها، ومــن هنــا كانـت الطفولـة اللبنانيـة مسـتمرة مـدى الحيـاة، وأكـاد أجـزم أنــه لـولا قنـوات الإعـلام اللبنانيـة وبرامجهـا الحوارية، لكنت كسرت تلفازي منذ زمن طويل.

نزلـــت مـــن الطيـــارة فـــي مهـــبط مطـــار الشـــهيد الحريـــري، ولا زلـــت أحـــدثها عـــن بيـــروت، دخلنـــا بســـرعة كبيـــرة الســـيارة، رحـــب بنـــا الســـائق اللبنـــاني بطريقـــة شـــعبنا العربـــي المضـــياف الكـــريم، وذهبنـــا للفنـــدق، حجـــزت غـــرفتين لـــم أشـــأ أن أراهـــا تتـــألم لنوبـــات المـــرض الجميـــل الـــذي لا يفـــارق مخيلتهـــا كلما تذكرتني أو نظرت لي.

خرجنـا لـيلا نتجـول ببيـروت التـي لهـا سـحر الشـرق السـاكن فـي أحلامـي وقصـص ألـف ليلـة وليلـة ، كانـــت بيـــروت بيروتـــان ، لـــيس لأن نهـــرا ثلثهـــا كـــالخرطوم ، ولا لأن فيهـــا قوميتـــان مختلفتـــان كقبـرص ، ولا لأن جـدار الفصـل العنصـري قسـمها كالضـفة الحبيبـة علـى قلبـي، إنـه أثـر الشـعب وقلمـا يعطـي الشـعب مدينـة كـل صـفاته، بيـروت مقسـمة عرفيـا وسياسـيا ومتنوعـة مـذهبيا ، لكـن لا أبـالغ إن

قلت أنها أكثر المدن العربية توحدا من ناحية التفاف شعبها حولها، مشينا بشارع الحمراء ، واشترينا منحوتات للسيدة الطاهرة المطهرة والمملوءة بالنعمة مريم عليها السلام ، زرنا بيروت الشرقية وبيروت الغربية ، أحسست وكأني محمد الفاتح أتلهف شوقا لغزو قسطنطينة لأوحد جزئيها الآسيوي والأوربي، ضحكت وقالت لذلك يخطب صغار ساستها وكأنهم يقاومون الإسرائيلي ويوقفون تمدد للاستبداد ، بينما تتكلم أفعال كبارها محليا وعالميا بمعارك الشرف، رغم كل صغر بيروت إلا أنها تبقى في القلب كفاصلة بين الماضي والحاضر ، أو كسجل بصفحتين إحداها في المصحف الشريف والأخرى بالإنجيل المقدس، كأنك تخرج من أسواق أعتق مدينة مشرقية لتدخل أحدث محلات تجارية في أحدث مدن الغرب ، لكأنك في مغارة العجائب هو سحرها المتجدد عبر الأجيال، هي متحف يجمع ماض بحاضر بمستقبل، تركيبة عجيبة لا الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل يستقيل بهذه المدينة، ورغم تعدد طوائف الشعب اللبناني ونظامه الطائفي وأعرافه الطائفية ، إلا أنك تجد حائطا مشتركا يعتليه المسجد برفقة الكنيسة ، وكأنهما يرقصان على حائط الوحدة الوطنية ترتيلة

مزمـــور الخـــلاص ، فشـــبابها ملـــيء بالحيويـــة والانفتـــاح ،بكـــل العـــالم تحتـــاج دلـــيلا ســـياحيا إلا بيـروت فالنـاس بكـرمهم وحـبهم للغريـب يعوضـوك عـن أفضـل دليـل يمكـن أن تـراه، باختصـار حكمهـا عـرف طـائفي وهـي أبعـد مـدن العـالم مـن حيـث الشعب الذي يقطنها عن الطائفية.

بعـد أن أنهيـت مـا سـبق كتابـةً، أعطيتهـا إيـاه وطلبـت منهـا أن تضـعه فـي كتابهـا عنـدما تتحـدث عـن زيارتنا لبيروت.

تودعنـا ذهبـت غرفتـي، قتلنـي الألـم ابتلعـت المـرارة وتجرعتـه برضـا كبيـرو فتحـت قميصـي وقلـت مرحبـا بـالموت والحبيبـة بجـواري، علـى الأقـل سأستحم ببحر دموعها وقبلاتها.

فـي الصـباح جـاءت بفطـور لبنـاني شـهي، وأطعمتنـي بيـديها، أخفيـت ألمـي قـدر المسـتطاع لينتهـي بـي الأمر بالمستشفى.

سـألتها؟ أيـن أنـا؟ قالـت بالمكـان الصـحيح، قلـت لهـا احضـري دفتـرك وسـجلي بقيـة حكـايتي تـرددت ولكنها تحت إصراري قبلت شرط ألا أجهد نفسي.

إصلاح ذات البين

(المستنقعات الطائفية أخطر على الأمة من فناء نصف مجاهديها)

الأنبار نهاية ٢٠٠٤

من الذي يعطي نغمات الآلات الموسيقية دلالتها، أليس الإنسان؟

لماذا كان العرب قديما يقرعون الطبول للحرب واليوم للأفراح؟ أليست ثقافة المجتمع من غير من وظيفة نفس الآلة الموسيقية عبر الزمن.

من الذي جعل المزمار على الدوام آلة الراعي المفضلة، ثم لماذا نسبت حكمة داوود إلى المزامير؟ أليست مهنة كل الأنبياء تقريبا كانت رعي الأغنام ما خلا داوود الحداد وإدريس الخياط والمسيح النجار عليهم قدس أقداس الله وسلامه جميعاً.

ما بين قرع الطبول وعزف العود فارق كبير شكلته نغماتهما المختلفة إضافة لتصنيفاتنا ولدور العامل الزمني والثقافي والمكاني للمصنف.

ومن هنا بدأ حوارهما، سألته: ما لذي ترومه من كلامك عن الموسيقا وآلاتها؟

فقال: علينا أن نغير مفاهيم كثيرة، الأذن العربية تم تسليمها لقليلي الأمانة، فحولوا السمع العربي من رصد وتحين الفرصة لتحرير القدس إلى الغوص بالخلافات العربية العربية، كما تغير مفهوم قرع الطبول، سنغير مفهوم الفرقة إلى مفهوم التوحد ولم لا!

وكما كان أغلب الأنبياء رعاة للغنم وللشعب، سيكون على قادتنا وساستنا أن يتعاملوا معنا على أننا رعية، نحتاج عناية فائقة ودائمة، لأننا معرضون للأكل من قبل كلاب القطيع وليس فقط من الذئاب البرية.

كيف لنا أن نصنف بني البشر بين كافر ومؤمن؟ ونحن لا نملك أشكالا أو أفعالا أوحتى لغة مختلفة تميزنا عن بعضنا البعض، فلا المسلمون السنة طبول حرب ولا المسيحيون مزامير ولا المسلمون الشيعة ألحان عود؟ الكل بعينين وفم ولسان وجسد لا يختلف عن جسد الأخر من حيث الشكل العام والوظائف.

قالت صدقت، وكن صبورا معي، وعد لي لدورك الكبير في توحيد المقاومة ضد العدو.

في القبيلة التي زرتها بالأنبار

وبعد أن أجابني الضيوف، استرحت قليلا، ثم سألتها كاتبا على الورق طبعا، لمن تلك الخيم البعيدة، فقال: هذا هو مربط الفرس ياصديقي.

نحن قبيلة عربية قديمة كنا قبل الإسلام نصارى ، جاء الإسلام أسلم كثير منا وبقي منا نصارى، ولم تكن هناك مشكلة ، ولكن مع فشل القوميين في ملء الفراغ الناجم عن سقوط النظام السابق ، واختراق المخابرات العالمية وبالأخص الموساد ، تحولت أكثر المفاهيم اعتدلا لجعل الوطن كصنم ، ولتغيير العدو، هذه الخيم للمتشددين من عشيرتنا، وخيمنا فيها المسلمون شيعة وسنة وأما مسيحيو قبيلتي سكنوا المدن ونتواصل معهم ليؤمنوا لنا السلاح والمال، ما حصل غزوات بالجملة من أبناء قبيلتنا المضللين والساكنين في تلك الخيام علينا بحجة أننا نأوي المسلمين الشيعة.

تركت المضافة وخلدت للنوم وخطرت ببالي فكرة، أرسلت لأحد أتباع سيد البندقية العميل، أن يسعى لجمعي بسكان تلك الخيام.... لم تطل الأيام حتى كان الوعد وبأحد أوكار التشدد وبصوتي دون أن يروني تم الاتفاق على أن نلتقي ليلا ، اقتادتني سيارة ، وقطعت صحراء كبيرة ، المفاجئ أن الحواجز الأمنية الأمريكية ، سهلت

مـرور المهجـرين ، ولـم أفهـم السـبب حتـى وقعـت الفتنـة السـورية ، كانـت فتنـة لأنهـا جـاءت كحصـيلة تراكـب مشـاكل متعـددة ، حولتهـا لأزمـة عميقـة فـي الفهـم لموضـوع الهويـة والانتمـاء و الدولـة ، لقـد عـرت الفتنـة اخـتلالاً واضـحاً فـي تطبيـق المفـاهيم وتفسـيرها علـى أرض الواقـع، المهـم دخلـت بيتـاً مظلمـا وأطفـأت الإنـارة حتـى لا يعـرف المهجـرون أنـي ذلـك لقـومي الـذي يستضـيفه شـيخهم الكـافر بحسـب عقيـدتهم ، دخلـوا الغرفـة المراقبـة مـن قبلـي بأحـدث الكـاميرات التـي تبـين لـي لاحـا أنهـا إسـرائيلية، بـدؤوا بعـد السـلام . وقـد اتفقنـا علـى قتلـه شـر قتلـة ، طبعـا المقصـود بـالقومي كـان أنـا ، فقلـت لهـم : لا ، شـيخنا يقـرئكم السـلام ويقـول شـيخ قبيلـتكم يعمـل معنـا ونحـن كلفنـاه باصـطياد القـوميين وجـرهم للفـخ ، عـودوا للعمـل تحـت إمرتـه، خرجـوا وقـد اطمأنـت قلـوبهم ولكـن قلـت لهـم لا تـذهبوا حتـى يـدعوكم شـيخ قبيلـتكم لمأدبـة صـلح ، وإيـاكم وحـديث الفجـار القـوميين ولا تقتلـوا أحـدا مـنهم، فالوقـت الآن لجمـع الأمـوال والسـلاح، ثـم سـقطت فجـأة صـاعقة فكبـروا وهللـوا بركـات الملقـب بـالمعلم زيفـاً للإسـاءة لرجـال الـدين والعلـم واسـمه الحركـي أو شـهرته ب ((حـرب)) لهـي أشـد قربـاً لطبـع الـدول الاسـتعمارية وسياسـتها فـي شـن الحـروب، وزرع للاسـتبداد ،

وإلصاق التهمة بديننا الحنيف، حلت علينا لعنة التكفير و القتل و الخراب ، لعنة اغتيال الأمة وكره تاريخنا ، لعنة و فتنة ضرب الرموز لنكون أمة بلا رأس ، وهل تخيف أمة لا رأس لها!

وهكذا خرجوا والكل مقتنع تماما بأن سيدهم الملقب بالأمير زيفاً للإساءة لرجال الدين والعلم، واسمه الحركي أو شهرته ب (حرب) لهي أشد قرباً لطبع الدول الاستعمارية وسياستها في شن الحروب، وزرع للاستبداد، وإلصاق التهمة بديننا الحنيف، أدرى بمصلحتهم، وبأن عليهم مصالحة سيدهم..

وبعد أن صار الوقت فجرا، غادرت مع من أتى بي لخيام المهجرين، باتجاه خيمة شيخ العشيرة....

رحب بي مستفسراً، أين كنت؟ قلت عرضت على خيام الضالين من قبيلتك دعوة لمأدبة باسمك للم شمل القبيلة تحت زعامتك.

استشاط غيظا ولكنه تمالك نفسه، وقال لي: لن يأتوا إطلاقا.

قلت له: مخطئ أنت يا سيدي: سيأتون.

فقال: سأعد وليمة يوم الجمعة بعد صلاة الظهر، فقبلت وأبلغت المهجرين عبر وسيط بدعوة يوم الجمعة للمأدبة، للدلالة على احترام عاداتهم.

بالرغم من ثقته بأنهم لن يأتوا، كونه، لا يعلم أني أعمل بهوية مزدوجة مع طرفي المقاومة العراقية، إلا أنني أكبرت شجاعته واحترامه لضيوفه وللتقاليد الأصيلة.

فردوس المحبة

(العادة أم الحاجة أم المبدأ، قل لي أيها كفته أرجح لأخبرك أين أنت)

دمشق ٢٠١٣

تماثلت المؤشرات الحيوية للاستقرار، فطلب صابر منها، أن تعود به لدمشق استكملت إجراءات الخروج من المستشفى، وجاءت بسيارتها وصعدا فيها، تولت القيادة، انطلقا في الثامنة مساء..

عبرا الحدود باتجاه سورية الأم، قال صابر: لبنان وسورية في السماء والأرض هوية واحدة وشعب واحد بدولتين.

قالت: صدقت.

دخلا بيت الياسمين، كانت الخادمة تواظب على سقاية ورود الدار وتنظيفه وكم سعدا لمنظر الياسمين، وللبحرة في فناء الدار ألف حكاية تحكيها، هبت الريح تحمل رذاذ الماء، أحسست، كما لو أنه هب يقبلنا، ولأكوام الحنين المكتنزة على جدران البيت وأشيائه ألف عتب وعتب ، كل البيت هب يسلم علينا.

جلست أعد لصابر عصير الليمون الذي يعشقه، وفرشت طاولة الخشب المصنوعة من عام ١٩٠٠، كل البيت متحف تعود معظم حيطانه لعهود مختلفة فحائط مملوكي وحمام عثماني وغرفة بنيت بعهد المحتل الفرنسي، وكأنه فراشه زاهية الألوان...رحل المحتلون عبر التاريخ وبقيت سورية حقيقة ناصعة لا تقبل التشويه أو الطمس أو التحول عن الهوية العربية.

وضعت الكوب على الطاولة، ريثما بدل ثيابه، كانت قد سقت الورود، ففاحت ريح الفل والياسمين، جلست قبالته، كان الصمت جمل يسير بصبر كبير في صحراء خوفهما، فكلاهما متخوف ولا يريد علاقة محرمة.

قالت في سرها ، آه يا كوب الليمون ، هو يشربك وأنا غارقة في قعر محبته وتمنيه ، ردت على

اتصال زوجها ، انفعل صابر دون أن يتكلم ، ولما أنهت المكالمة سألته : أتغار أيها الحبيب، قال : ليست قضية غيرة فحسب، ولكنك تحبينه ، فقالت: بل اعتدته ، فرد وأنا أجابته : أحتاجك وكيفما تريد أنا طوع بنانك ، قال العادة شيء يحصل بشكل مصادف أو موروث عن أهل أو بيئة والحاجة إما جسدية أو نفسية وحين ينتصر أحدنا على حاجاته الجسدية والنفسية تتحول لحاجة روحية ترضي الجسد والنفس بإطار يرضي الله والضمير وحينها فقط تتحول مبدأ، إن كان حبك له حاجة ، فأنت في أقل أطوار الفكر أصالة، فالعادة المتضمنة للغريزة، هي من تجعل الفأر يخاف القط ودون أن يعلمه أحد.

والحاجة أيا تكن ما لم تكن مصونة بالقانون وبعيدة عن الأنانية وأذى الجميع فهي أيضا حيوانية، فمن يحتاج كوب ماء للشرب ليس من حقه بعد أن يلبي حاجته أن يحجز الماء عن محتاجيه.

أما العادة والحاجة إن سارتا في خط المبدأ المحكوم بالأخلاق والضمير. فلن ترضى إحداهن بخداع زوجها فقط لأنها اعتادته، كان كلامه كالبارود وأشد قوة ووقعا عليها، دخل لينام ولم يزل غضبه مشتعلا.

تركتــه وكفنــت ليلهــا بــدموع حارقــة ،هــب النســيم طــارت قبعتــه وارتقــت أعلــى درجــات الســلم ، وكــأن الســطح أراد أن يعتمــر قبعــة صــابر ، قــرأت مــا حصــل علــى أن البيــت العربــي يــدعوها للســطح، جففــت دمعهــا بمنــديل وارتقــت درجــات الســلم ، ورأت النجـوم وكأنهـا تحيـي عيـد مـيلاد ولادة جديـدة لهـا ،تـذكرت سـكين صـابر الكلاميـة التـي وإن آلمتهـا ولكـن أيقظتهـا لتحيـى مـا بقـي بشـكلٍ صـحيح ، يومـا مــا حرمنــي أهلــي أن أتزوجــه ، أمــا اليــوم تحرمنــي منــه عــادة ، والعــادة ليســت دلالــة إيمــان ، فقــد نصــلي تلبيــة لعــادة لا تلبيــة لمبــدأ منطــوٍ علــى حاجــةٍ روحيــةٍ عليــا ، أطــل الصــبح وقــد اســتيقظ صــابر ، فأطعمتــه فطوره بيديها .

أأخبره بأني سأطلب الطلاق أم لا.

ختمـت نقاشـها الـداخلي بـإعلان لـدي عمـل ولكـن قبـل الــذهاب إن كنــت مرتــاح نتــابع قصــتك يــا بطلــي، حسنا قالها باقتضاب حزين وشديد.

احتفال التناقضات

الأنبار ٢٠٠٥

تقول العرب:

تفرقت غنمي يوما فقلت يا رب سلط عليها الذئب والضبعا

وذلك لأن اجتماع الذئب والضبع لا يضر الغنم، إذ أن كل منهما يمنع صاحبه الاقتراب من الغنم، ليظفر بالغنيمة وحده.

بعد أن حضر المهجرون وشيخ القبيلة، مدت الموائد، وبدأت رصد الواقع عن كثب، التقت العيون على مائدة الطعام المجنونة بصنوف الطعام المتعاكس، فبينما ترى مالحا من الطعام، تجد شرابا حلواً يتبعه، وما بين مر وحامض وحاد تضيع الطعوم كلها، ولا يضيع طعم الترقب والتخوف من عيوني، فتارة انظر لفقراء جمعتهم فرحة الطعام ولفقراء الوله بالسلطة والمال.

أصحيح أن الفقر فقر عقل. أم أن أحد أغبى الملوك لما اعتلى عرش بلاده، كسر قاعدة الفقر السابقة التي يجامل الفقراء بعضهم البعض بها، ولما اتفق الجميع على تقديم بعض التنازلات لحل الخلافات وجمع شمل القبيلة من جديد، لم نكن نعرف أن اللقاء سيكشف الكثير من تفاصيل الأشخاص.

رتبت خيمة المجزرة، عفوا خيمة المأدبة، ليجتمع ضباع التشدد وذئاب التشدق بالقومية، وتلك هي جمالية بداية أو جمالية الضد، عدوان حول فريسة واحدة وتحت سقف ناظري، كنت كمن يسير على حافة من ورد وشوك، الطاولة المستطيلة تشبه استطالة المهجرين على الناس بعبادتهم واستطالة غرور القوميين على الدنيا بأكملها، أما الكراسي فكانت كمن يجلس عليها عقوبات مفروضة لعدم الراحة بالجلوس عليها.

فالمدعوون بغالبهم لم يكونوا إلا كوارثا بشرية تسير على قدمين، فالقومي بنظر الأمة يتصف بحبه للرشا والفساد المالي والمتشدد بحبه للطعام والنساء وتحليل الدماء كل واحد يرى المأدبة من زاوية عمله وتفكيره ،التاجر يرى المأدبة كتكلفة والمزارع كمزرعة متنوعة والفقير لا يراها إلا كنز، الفرح بالاتفاق لم يكن واحدا بنظر الجميع ، فالقوميين فرحوا بتوحيد البندقية ضد المحتل وأخيرا ستزداد الضرائب والفساد ، أما المهجرون فرحوا بأن القوميين سيقعون بفخ شعاراتهم الرنانة الكاذبة والطنانة ، لأن المحتل لن تهزمه الشعارات، ومع ذلك الصمت كان سبب ائتلاف المجتمعين وكم كان موتهم سعادةً لي ، فالعيش بين المتميزين ضرر كبير لأن الضريبة ستكون

محاولتك اللحاق بهم ، وهو ما سيجعلك تضيع بين أسمائهم ، فبوجود قادة كبار لا وجود للصغار ، مع أن الصغار هم العمود الفقري لكل المعارك، وثارت زوابع النظرات على تحف الحلويات بعدما رحل الطعام ، ويبدو أن خدر الطعام غير من شراسة البعض لتصبح وادعة ومسالمة ، ومن كانا متحاربين قبل يومين ، أصبحا صديقين ، ولم يكن أحد الطرفين ليطمئن للآخر كم كنت سعيدا بمراقبة الجميع ، لقد كانت المأدبة الجامعة للذئب مع الضبع راحة للشعب العراقي لمدة عامين متواصلين في الأنبار إن مجازر الفقراء ليست إلا موائد الطعام ولكن هؤلاء القوميين والمهجرين كانت موائدهم مجازر ارتكبوها كل بطريقته بحق العراق ، بعدها انطلقت أعنف هجمات المقاومة ضد المحتلين والتي أجبرتهم على البدء بالتفاوض مع حكومة وطنية للعراق كل العراق ، عرف الأمريكيون دوري فصرت على لائحة المستهدفين.

انفصال جسدي والتحام روحي

دمشق ٢٠١٣

(الزواج حقا هو ما سرى من غيرك فيك بغيابه لا بحضوره)

ليس شرطا أن يكون الحب وسيلة للزواج، فكثير من الناس يتخذون من الحب وسيلة للجنس والعلاقات العابرة، وبالتالي ليس الحب على دوام بوابة تفضي للزواج، كانت تحاول بشرحها المطول لصديقتها، أن تقول إن حب صابر حب زواج.

اتصلت بزوجها، أبلغته لم أعد أريد تحمل زواجك المتكرر من النساء، أريد الطلاق، ولكنك لطالما شجعتني وقبلت، لا أقدر إني أحبك أكثر من بقية زوجاتي، إن شئت طلقتهن وجئتك، لا أرجوك طلقني وكفى، أغلق الهاتف بوجهها، وأعاد الاتصال لم يتحمل قرارها أنت من تخليتي عن القيام بواجبك الزوجي تجاهي، اتصلت حنان أخبرتها ماما لما تصرين على الطلاق؟

اصدقيني كما صدقت معك دوماً، حسناً، أتذكرين معرض الرسم ولوحة مدارات وما علاقتها بقصة طلاقك من والدي، إني أحب هذا الرسام منذ صباي في الموصل، هو من أخبرتك عنه دوماً.

أكاد لا أصدق أمتأكدة يا أماه.. نعم يا بنيتي، لك ما تريدين ولكن حاولي أن تتزوجي صابراً سرا حتى لا ينزعج أبي عديني، حسنا أعدك.

تخلت عن زوجها وقضت فترة، ثم أخبرت صابراً بطلبها الطلاق، لكنه لم يتقدم بطلب الزواج أراد أن يختبر سبب رغبتها بالطلاق، ازداد حبه لها، بخاصة حينما أخبرته بأنها لم تطلب طلاقا لتتزوج به وأن لا علاقة له بطلب طلاقها. هو قرار تأخر كما قالت، وأنه يكفيها تواصلها الروحي معه، فالزواج ليس ورقة رسمية فحسب بل هو ما سرى من الزوج في قلب الزوج بغض النظر عن التواصل الجسدي أو الحضور المادي، إنه التوافق على الاستمرار إلى نهاية النهاية.

المهجرون والقوميون يوحدون هدفهم مرحلياً

البندقية الموحدة تنتصر

بعد ليلة المأدبة، تحول تاريخ العراق كما كان يتضح لي باتجاه الأحسن، إذ تصاعدت أعمال المقاومة واشتد عودها ن وبدأ المسجد العربي يتحرر من فكر الجمود التدميري والتنظير الكاذب والواهي للقوميين، وينطلق ليكون سباقا في الانتصار لعراق موحد شعبا وأرضا وتبقى القيادة أمرا مؤجلا حتى يتوحد العراق ويتخلص من

الاحتلال، مع أن الشعب اتحد على عدوه واتفق على سيادته على أرضه إلا أن الخلافات كانت لاتزال قوية وعصية وخاصة عند النقاش على شكل الحكم.

قام المعلم بعمليات واسعة ضد المحتل، وجعل كل العراق هدفا لتحركاته ونضاله، دمر المحتل المدن المقاومة وأسر الكثير من شبابها وشيبها، ولكن الثورة بقيت صامدة ومشتعلة فاتبع سياسة الأرض المحروقة والتهجير والتفخيخ ولم ينجح، وهنا غيرت الولايات المتحدة الحاكم الأمريكي لحاكم عربي ولكنها تريثت فلا زال أمامها رغبة بتجريب بعض السلاح الفتاك لتعرضه للبيع في دول العالم.

كنت أقود من خلال الصمت والتخطيط والتجهيز للمعركة أشد المعارك العاتية ضد الاحتلال، تفاجأنا حينها بإعلان هدنة والاجتماع للاتفاق على تسوية لانسحاب المحتل، وليتها لم تكن تلك السحابة السوداء في تاريخ نضالنا.

وانسحبت القوات المحتلة من المدن، ليصبح الفراغ هو سيد المدن العراقية، فالمقاومة منقسمة ولا يمكنها حكم العراق، لأن الحكم يحتاج لتوافق مفقود وخطة واضحة المعالم، واستمر القتال

وعلت نبرته، ولكن أمريكا تمكنت من الخروج وقلب الطاولة على العراق والعراقيين من الخارج وذبح العراقيون بين سندان أزمات الداخل ومطرقة مطامع مشاريع دول الجوار.

بالمختصر أحببتك ولا أزال ...

(الحب لا يشيب أبداً)

دبي نهاية ٢٠١٣

وصلت دبي بشكل مفاجئ واستأجرت بفندق جميل غرفة، ثم كلمت محاميها ليسير لها معاملة الطلاق، هاتفت ابنتها لا وقت لدي لن أبقى سوى يومين لا تخبري والدك عزيزتي، ثم كلمت جريدتها، وحددت موعدا لزيارة الجريدة قبل سفرها بساعتين اشتاقت لبساتين النخيل ولرحل الصيد الليلية، لكل حجارة ورمال ومباني وسكان دبي.

وقامت ليا مع ابنتها التي بررت لوالدها الغياب عن البيت بمشروع بحثي عن الصحراء، وصلتا الصحراء ومعهما حبيب صديق حنان، جلست تلك التي اسمها لا أدري تعفر نفسها بتراب الصحراء، وترمي به صوب ابنتها وحبيب كما لو أنه ثلج تتلاعب بنعومته.

بعد ساعات عادتا للفندق، وردها اتصال بنجاح الطلاق، بكى وجهها فرحا وخفق قلبها وكأنه يرقص كهندي وصل أخيرا دبي مدينة الأحلام.

ذهبت تقرأ الإنجيل وتصلي وتشكر الله الحنان، ثم كتبت ع الفيس بوووك:

لقد كان حنيني إليك ثلاثي الأوجاع، وجع بعد ووجع حنين ووجع فقد، أما البعد فقد زال بقدومك وأما الحنين فلن تطفئه أبدا وأما الفقد فلن أسمح لك به أبدا، وكثيرا ما يعود وجعي مركبا من تذكر أيام فقدك وتذكر أيام بعدك وتذكر أيام صدك، فأغدو مثلثة الحنين إليك، أنا حرة صابر كرمى لك، حررتني السماء.

فرد عليها بمنشور على صفحته الخاصة:

(أنت حبي وسلاحي ودوائي بوجه المرض، سأكذب إلى متى، إلى متى سأمثل دور اللا مشتاق وأنا مشتاق، سأكذب على كل الناس! ولكن الله وحده يعرف كم من الصعب على أن أخبرك بمقدار حبي لك وبمقدار رغبتي في أن أتحول سيد قلبك للأبد).

سعدت كثيرا برده، وذهبت للقاء الأصدقاء بالجريدة، فقد أرسلت جزءا لا بأس به من تقريرها عن مقاومة العراق، استقبلت بالورد والترحيب

الكبير وتصفيق حار لم تتوقعه أجهشت بالبكاء، الكل يقول إن العدد الأخير الذي نشر به التقرير بيعت منه ملايين النسخ، هاتفت صابر وأخبرته وكم زادت سعادتها بسعادته وبتعبيره للمرة الأولى بعد سفرها عن شوقه لها.

طال احتفالها بنجاحها الكبير تعجبت وكتبت في المجلة بافتتاحيتها:

للحب سر كبير، فبعد أن عاد حبي القديم، تركت عملي بالمجلة وتوجهت للعيش بدمشق وقد اكتفيت بما حققت من نجاح في عملي، وقد تظاهرت بأني اكتب عملا عن مقاومة العراق لأكون قريبة من حبي الأول ولأبرر لأسرتي غيابي، وها أنا قد حققت فوق ما تمنيت، باللحظة التي قررت فيها الاكتفاء أصبح نجمة الإعلام المكتوب ومن يدري ولربما المرئي عن قريب، حقا إن الحب لا يشيب ومن يحب لا يخيب.

طال غيابها، فكتب صابر رسالة وأرسلها لهاتفها:

(آه يا كوبها يا ملعقتها يا كل كلها مشتاق لها، فيا ليت النجوم تحمل من لمعان عيونها قناديل نور لتنير دروبي المغلقة بغيابها) فردت قادمون يا حبيبي، سافرت صوب دمشق على وجه العجل

لتلتقيه، ولكنها حاولت إيهامه أنها لاتزال بدبي، فتحت السكايب وسألته أن يكمل قصته.

عدو وهدف

(قل لي من عدوك وما هدفك أقل لك ما هي أخلاقك)

كركوك ٢٠٠٥

لم يستسلم تحالف الاحتلال وأذنابه ، فقد تقصوا وتابعوا وراقبوا فاكتشفوا دوري ودور الكثيرين ، فاغتالوا الكثيرين من الوطنيين وأهل الخير، وبدوؤا يفكرون في الانسحاب كليا من العراق ولكن الاستخبارات الإسرائيلية قدمت مخططا شيطانيا ، تضمن عدة نقاط أهمها : اغتيال العلماء وتهجير الأقليات من أماكن تواجد المسلمين لتصوير المسلمين سنة وشيعة على أنهم رعاة إرهاب وقتلة ومتخلفون ، وتشكيل مجلس صوري يمثل العراقيين من خلاله من قبل نواب عراقيين يجري اختيارهم بعناية ، ثم أطلقوا الطلقة الأخيرة بنعش المقاومة والعروبة والسلام في العراق فصوروا المقاومة على إنها تنتمي لمذهب معين بهدف تصفية العراق مستخدمين كل شيء ممكن لجعل العراق فريسة مستباحة لدول الجوار الطامعة بخيرات العراق.

بدأت الملامح الانفصالية تتزايد يوما بعد يوم، فها هي كركوك ترفع علما انفصاليا للكرد ، ويهجر عربها وتغير لغتها الرسمية وتنزع كل المظاهر العراقية منها، وبالوسط وخاصة الأنبار تم تغذية الخط المتشدد ليهزم الاعتدال والخط القومي ، فحلت حرب ضروس رحل ملايين العراقيين مهجرين بنتيجتها، أما المناطق الجنوبية والإسلامية الشيعية ، فبدأت التفجيرات تتنامى في مدنها حتى وصل حصادها لأرواح العراقيين ما يزيد على حرب الاحتلال ، تغير العدو وأصبح المحتل بيضة القبان والكل يسعى للحصول على دعمه بدل محاربته ، فالهدف بات طائفيا وقزما لا ينسجم وعراق العرب العظيم ، ولأن العراق كسورية ولبنان مركب من كل طوائف الأرض، اشتعلت حرب لا تزال فتائل شررها تتنقل حتى أحرقت سورية ومصر ولبنان وليبيا والبحرين والسعودية واليمن بشررها ، لم تعد لا فلسطين ولا حتى العراق ذاته هدف ، بل الحصول على المال النفطي المسموم والملوث بالدماء من بعض السياسيين الذين فضلوا مصالحهم وأحقادهم على حساب وحدة العراق والأمة العربية، وهكذا غير الهدف عدو العراق من خارجي لداخلي وسقط العراق مضرجا بأموال النفط ومؤامرات مخابرات

عربيــة وغربيــة تتكالــب دولهــا علــى ثرواتــه وتطمــع بتجزيئه.

لقاء جديد

(كل قدر جدي ولادة جديدة)

دمشق ٢٠١٤

وصـلت مطـار دمشـق، واسـتقلت سـيارة أجـرة لبيـت الياسـمين، طرقـت البـاب فلـم تجـده، ففتحـت البـاب وأفرغـت الهـدايا التـي جلبتهـا مـن دبـي، ثـم نامـت بعمـق، ولـم تسـتيقظ إلا علـى ترحيـب الخادمـة الحـار، أين صابر؟

سـيدي لـيس هنـا؟ توجمـت أعـرف ومـا الجديـد بإجابتـك؟ وقلـت لـك نحـن نكـره أن تنادينـا بسـيدي وسيدتي، فأنت أخت لنا، إن قبلت.

شـرف كبيـر يـا سـيدتي، حسـنا لـن أسـتطيع أن أغيـر شيء لذا قولي ما شئت.

دخـل صـابر مسـاء وبيـده شـتلات ورد مختلفـة، زنبـق وريحـان وفـل وياسـمين، أخذتـه بقبلاتهـا وعناقهـا وبكائها، تأثر بشدة ونطق: أحبك.

سألته: أين ستزرعها؟

أمسكت الشتلات وبدأت تزرع، هنا حبيبنا العراق سنسميها زنبقة العراق وسيكون الحائط القريب منها لأثريات العراق ولوحاتك العراقية.

وهنا بالحائط الغربي فل لبناني وسيكون عليه كل جميل من ذكرياتنا في لبنان، وبالحائط الجنوبي خناجر يمنية وتراث يمني وريحان يمني طيب الريح كطيبة أهل اليمن، أما الحائط الأخير فسيكون للياسمين الدمشقي لحاضرة العروبة الأبدية، خذ هذه الصورة للكعبة المشرفة والقدس الشريف وضعها على ياسمينة الشام.

لمحت عينيها تجهشان بالبكاء والخادمة تقبل يديه، أنت أنبل رجل عرفته، أغمي عليها، استفاقت لتعلم أن السرطان لن يمهله كثيرا.

فقالت: سنتزوج الليلة وبمباركة كنسية وإسلامية..

رتبت أمر عرسها، دعت مسلمين ومسيحين يجمعهم خط المقاومة والعمل الوحدوي.

عقد القران بسرعة، بل كل شيء تم بسرعة وكأنه وميض شوق في أحداق سكران كما يقول الشاعر أبو ريشة، لم يمضِ شهر على الزواج، حتى فحص جسده، فظهر المرض مستقرا وعلامات استمرار الحياة تزداد فقبلها وشكر الله.

قال الطبيب ليته تزوجك من ألف عام، فاليوم ضحكته تشرق سلاما في قلوبنا جميعا، أدام الله حبكما.

كان صابر قد رأى فيما يرى النائم يوم وفاته عدة مرات ومنذ زمن ولكنه لم يخبر أحدا.. قال لها: أمامنا هذا العام فافعلي بي ما شئت، فإني راحل بالعام القادم لقد مللت الحياة، ضحكت وقبلته، قائلة: سأفعل بك كل شيء ولن ترحل كانت تظن كلامه كلاماً فقط، والحقيقة أن الذهب لا يمكن أن يكون ذهباً بغياب من يقدر قيمته ويسبكه ويسوقه ويعرضه بطريقة لائقة تعطيه حقه وسعره المستحق؟

قال جملته تلك وعاد يضمها ويتمشى معها.

عديني، ستتذكرين قوتي وبطولتي ولن تذكري ضعفي أمام الأجيال القادمة.. أعدك، لكن عدني ألا تذكر الموت سأحاول، ولكن كيف أصابك المرض؟

رد: حسنا، أين دفترك لنكمل القصة.

حسناً: قل لي.

تمتم: بسياق القصة ستعرفين.

لقاء صادم

(فجأةً تحول البغل حصاناً)

كركوك ٢٠٠٦

طلب الأكراد لقائي شخصيا، توجست خوفا ولكن ولكون جدتي لأمي من الكرد تواصلت مع أخوال أمي، وأعطوني الحماية والآمان، دخلت الإقليم الذي لطالما أهمله غباء سياسي العهد السابق.

استقبلوني بحفاوة أخافتني أكثر، ها هو اللحم المشوي واللبن الرائب، كل أيها العجل النحيل، لا بد أن تسمن. قلت لنفسي والخوف يأكلني.

سألته: ممن؟ قال: بلد مفتوح أمام مجرمي العالم كله، وأنا مطلوب للعملاء، لأني رفضت القتل على أساس طائفي، ويطلب رأسي القوميون لأني كشفت فسادهم وانسحبت.

صعقني الخبر التالي: وزيرة خارجية لإحدى الدول الغربية، قدمت سرا وتريد محادثتي وكبير مخبريها في العراق.

دخلت رحبا بي، ذكاؤك كان عدوا كبيرا لنا ولكن غباء قومك جعل خططك تعود علينا بالخير، سكتت، فقال رئيس استخبارات ذلك البلد، أهلا

بعميل الطرفين، لن نخبر أحداً عن انتمائك المزدوج ولكن وكما تعلم لكل شيءٍ حساب.

اضطررت للقول ما المطلوب:

لن نجبرك على الخيانة، فأنت للحقيقة رجل مناضل وإن كنت عدونا، لكنك ستدخل البرلمان العراقي ممثلا عن الأكراد، خرجت ولم أعد ألتفت وقف أحدهم بوجهي وسد الباب وأعطاني صورة لعائلتي المقيمة بدمشق، و قال: متى تحب أن تودعهم، صمت وقبلت بتمثيل الكرد، كي لا يشعر القوميون بانفصال كامل للكرد عنهم ، فتتوجه البندقية العربية من جديد لتوحيد العراق، بدل أن تتوجه لتحريره، ثم ما الضير بأن يحصل الكرد على حقوقهم المدنية والإنسانية تحت سقف وطننا ووطنهم العراق..

كلنا رضخنا، فبعضنا قتل وغيرنا ارتشى وسواه خطف لغوانتنامو، ومن كان من المهجرين عدوا لأمريكا أصبح صديقها بالخفاء، تحول البغل حصانا.

ودخلت المجلس النيابي، وتم الضغط علي لأطالب وأنا القومي العربي المسلم باستقلال كردستان مما سيشير إلى أن القوميين منقسمين على أنفسهم،

وسيشجع المزيد منهم على تأييد عراق فيدرالي، ما يعني ضياع العراق العظيم بروافده الصغيرة.

وفعلا نفذت ما طلب مني ، بعد أن اغتالوا أحد أقربائي وهددوني بمحو عائلتي عن وجه الأرض، لم تعد تضحيتي تنفع فالعراق سلخ كشاة وتم الهضم ، ثم أقر بند معاهدة لانسحاب قوات الاحتلال ، بعدما سقط العراق في فوضى الاقتتال مع للاستبداد التكفيري وخيانة الانفصاليين ، قابلت تلك الوزيرة الغربية مرة أخرى ، قالت لي : أحترم وطنتيك ، لكن لا تفرح ، عائدون ولم نذهب ونترك الساحة فارغة ، فعن قريب سترى العراق تحول نموذجا لكل الدول العربية ، اعذريني هذا وهم ، قالت : هل تعلم أن المهجرين باتوا غالب العدد الكلي لشعوب المنطقة ، وأن مال نفطكم يشتري لهم سلاحنا ليقتلكم بأيدي أبنائكم ويجوعكم بحصارنا الاقتصادي.

تم إعطائي إبرة تحتوي سرطانا لم أعرف إلا بعد عامين، هذا سرطان يشهد لي بتضحيتي، وللقتلة بإرهاب العراق والعالم.

تابعت ليلتها فيلما أميركيا اسمه الطريق إلى بابل، وأنا أسميته كيف تصنع أميركا للاستبداد؟ يعرض الفيلم ثلاث لوحات.

الأولى طفلين رعويان وبدو مغاربة، لعبا ببندقية فأصابا بالخطأ مواطنا أمريكيا فتحول عمل الطفلين لعمل إرهابي وذلك لدعم الدعاية الأمريكية لغزو العالم.

أما الثانية: شابة يابانية تعاني من أعراض مرض نفسي، يجعلها تفعل المستحيل ليتقبلها مجتمع التأمرك، فتقودها تصرفاتها المتماهية مع للاستبداد الثقافي للعولمة لازدياد عزلتها فتقتل نفسها، وتستغل المخابرات الأمريكية الموضوع على أنه عمل إرهابي، لتعزز من تواجدها في الشرق الأقصى قبالة العملاقين التنين الصيني والدب الروسي.

والثالثة خادمة مكسيكية تعمل لدى أسرة أميركية، تقطع الحدود ليلا باتجاه المكسيك فيتهور السائق ويقتله الحرس الأميركي وتضيع المرأة والطفلان، فيحقق بالموضوع على أنه عمل إرهابي، وكأن شعوب العالم كله إرهابيون، مع أن صانع للاستبداد هو الخوف الأميركي من العالم والطمع بالسيطرة عليه، فالخائف قد يقتل جيشا من أصدقائه، إن تحرك فأر حقل بقربه.

يبقى الشوك شوكا وإن أثمر والريحان ريحانا وإن يبس

والطفل شبيه أبيه شكلا أو فعلا هيهات يلد الكلب إنسانا

بغداد ٢٠٠٧

تغيرت قواعد اللعبة السياسية، وبات العراق أعراقا، وبات مستحيلا على القبول بالاستمرار به، خاصة وأن للاستبداد بات له ممثلون في كل العراق، والكل إما متفرج أو منـدد أو منتظر، والبرلمان مليء بالوطنيين والشرفاء والمخلصين ولكن الضغط والترهيب للمحتل وللاستبداد مستمر على أعضائه وقفت أخطب وقتها:

(نحتاج لمن يكذب علينا لتستمر الحياة ، ولربما تلك هي القاعدة الذهبية لمن يريد بناء مجد من سراب ، وهي القاعدة التي فاتتني وأنا أطرد آخر سراب من أصدقاء المصلحة وغربان المنفعة حولي، وسارت الأيام ، أزرع غرفة العمل والحياة وحيدا، لأنني كما أدعي وتعرفون على أقل تقدير فضلت مصلحة البلاد والعباد دوما على مصلحتي، ولم أكن أعلم أن حب الرجل لزوجته وقيام العبد لربه ليلا وزكاة المؤمن كلها مصالح عامة ، ولكنها تسمو مرة وتدنو أخرى ، وليس يرد سمو

الفعل أو تدونيه لذاته، وإنما لنية ورغبة فاعله ، ولعل جزءاً كبيراً من تخلفنا ، إنما تعود لكوننا نرد ونصيغ الفعل المحمول على أنه شرف وعز كبير وكبرياء للفاعل ، بينما قيام شخص ما بواجبه، ليس منة يعير بها أحد ، وعلى سبيل المال فالصلاة بجوهرها عمل نؤكد به على شدة تمسكنا بالنهج الرسالي للإنسان فنبيع الملذات الدنيئة ، ولكن هل الصلاة كفعل محمول رهينة الفعل ذاته أم الفاعل الحامل لشكل الصلاة ومضامينها ؟

لا تغيير وارد، إن لم نؤمن أن التغيير يحتاج أفعالا مميزة ومنسجمة وواقع العراق الصعب.

أيها السادة والسيدات: أكرمكم الله بالراحة والسعادة.

إن الإنسان قدس الأقداس، وهو المرحلة الأكثر رقياً والجانب الأكثر إلهية في حياة ابن آدم (فكل بشري هو ابن لآدم ولكن ليس كل ابن آدم إنسان)، إن ما سعت إليه الأديان جمعاء هو إدخال أسمى مادة خام (البشر) إلى فكر المحبة والسلام وعافية النوايا من الشر والسوء ليخرج من بشري بنور الإيمان الذي جاءت بله الأديان في نهاية المطاف إنسان.

العـــراق نـــازف ومحتـــل ونحـــن وليـــدوا الاحـــتلال والارتجـــال لا العـــراق وإنســـان العـــراق المبـــدع، لـــذا أناشـــدكم بـــالعراق أن تســـتقيلوا مـــن برلمـــان وهمـــي، يكـــرس مصـــلحة أعـــداء العـــراق الانفصـــاليين مـــن جهـــة والمحتلين من جهة أخرى.

إن للاســـتبداد الحقيقـــي لـــن يقـــف مـــا دمنـــا لا نســـتطيع تجفيـــف منابعـــه، ولـــن ننتهـــي منـــه حتـــى يخـــرج الجـــيش العراقـــي مـــن عبـــاءة الاحـــتلال بشـــكليه الـــداخلي والخارجي.

عـــلا التصـــفيق وغـــادرت المجلـــس وأجـــزم بـــأن غالبيتهم لم يفقهوا شيئاً من قولي.

حسد طارئ يشوش وغدر كامن يؤلم

(في ليلة ليلاء وذئب وعواء سرق كتابي الأصدقاء)

دمشق ٢٠١٠

رغـــم أن حـــديث النبـــي الكـــريم يوصـــي بـــأن نســـتعين علـــى قضـــاء حوائجنـــا بالكتمـــان ، إلا أننـــي كنـــت قـــد أخبـــرت صـــديقاتي عـــن مشـــروعي عـــن المقاومـــة ومقـــالاتي الصـــحفية عـــن صـــابر والعـــراق، وكـــم حـــدثت زميلاتـــي الصـــفيات عـــن عملـــي وعـــن مســـماه (لا أدري) تـــأخر صـــابر عنـــد أصـــدقائه ، فقـــرر أن يبقـــى عنـــدهم يـــومين آخـــرين ، لأنـــه ارتـــاح كمـــا قـــال

فزارتني صديقة، حاولت العبث ذات مرة بحاسبي الشخصي ، فنهرتها وصرت أخفي أعمالي الصحفية بشكلٍ جيدٍ ، وأتحاشى أن أتركها وحيدةً في بيتي ، وذات مرة أبلغتني أن صديقتنا المشتركة، تعاني من نوبة سببها مرض السرطان، المهم قمت بالواجب وبقيت معها لوقت طويل ، ولما عدنا طلبت المبيت عندي فرحبت ، ونمت ثم خرجت لجلب العشاء ولكن دعتني هدى التي أخبرتني بنوبة جميلة ، وقد بدأت الطعام ، فيما تظاهرت هي بأنها تعمل ، كانت تكلم جميلة على الهاتف ليسرقا العمل سويا ورغم أن جميلة طلبت قرصاً صلبا (c.d)، لم يخطر ببالي أن يكون الهدف سرقة عملي ، وتتالت الأيام ولم أفكر بهذه الطريقة إلى أن عدت بعد رحلة صيفية للجبال ، خطر ببالي كل ما حل وكأنه شريط قد حصل وكنت غائبة الوعي ، وبالرغم من أن الزميلتان كلاهما مصابتان بالسرطان وليس بالمرض شماتة، إلا أنهما سرطانان حقيقيان ، حزنت وحمدت الله أن المسوق بالرغم من جودته غير مكتمل ، طار النوم من عيني ودخلت قلبي أكوام شك شائكة وإحساس بغدر كبير ، وبدأت العمل بسرعة ضخمة لأكتب ما يقرب الخمسين صفحة بيومين ، البعض يعتبر ثلاثين أو خمسين أو حتى

مئة شيء سهل بيومين ولكني كنت أؤلف لا انقل أو أسرق مؤلفا لغيري ، حزنت وتألمت ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

سمع صابر فحزن وطلب مني الاختزال والسرعة لأنشر عملي، وأحصل على حقوق الملكية الفكرية، وتعاهدنا على الإسراع بالعمل، وإن تراجعت نوعية العمل، على أن تبقى أهدافه قائمة ومرعية حتى آخر سطرٍ في العمل، كنت ولم أزل أتحسس من تذكر هذه الحكاية، ولذا دائما ما أنصح الكاتب الأصيل ألا يثق بأي شخص فالمثل العربي القديم يقول: لا تأمنن قارئ على كتاب، تخوفت على صابر فمرضه كافٍ ولا أريد زيادة همومه.

وبدأت عملاً مضنياً، أعمل ليل نهار، أوثق وأكتب وأدقق وصابر يقدم الطعام والشاي ويسهر معي ويدعمني بكل قوته، حمدت الله أن سرقة جزءٍ من العمل قد عززت وأكملت أهم عمل في مسيرتي الصحفية والشخصية قصتي حبي للشخص وإعجابي ودعمي للمقاوم للكبير صابر، لأول مرة أستذكر حنان والدي.

محاولة اغتيال

(من فلسفة الورد: أنه يكافئ اليد التي تلمسه أو تقتله بأن يترك عطره أثرا عليها)

بغداد ٢٠٠٨

بعد أن أنهيت خطابي في قبة البرلمان الوهمي، خرجت مباشرة وركبت سيارتي بمرافقة حراسي الشخصيين، توجهت لبيتي الكبير الممنوح كهدية لي من الحكومة، اتصالات عدة وردتني تراوحت بين مهنئ ومحذر ومهدد، ولم أستطع التفكير فقراري لا تراجع عنه إطلاقاً، استيقظت صباحا لأجد السائق الحراس يستأذنوني بالرحيل، لأنهم لا يستطيعون تحديد اسم ومركز المتصل، ولكنهم ودعوني وأخبروني خوفهم الشديد على أمني وحياتي.

دب القلق في حياتي، وتغيرت عاداتي ونشاطاتي واحترست من أي خطأ قد يودي بحياتي لم يكن الرحيل عن العراق واردا في البداية بقاموس نضالي ودفتر حلولي، تم مقاطعتي وإيقاف كل مواردي المالية، ووضعي تحت مراقبة شديدة القسوة، كل ذلك مترافقا مع دعوات سرية لحل من اثنين إما عودة للمجلس الوهمي أو هجرتي، وكلا الحلين لا يروق لي.

تأخرت ذات يوم في شوارع بغداد، وكم كنت يومها مثيرا للشفقة، كنت أحمل طبشورا وأكتب على الحيطان والطرقات ذكريات وأسماء، اكتب شعارات العروبة، أقوال عمر المختار وعبد الكريم الخطابي وسلطان باشا الأطرش، أتلمس دفء أصواتهم في مخيلتي كتبت كل ما كنت أخشاه ذات يوم، ولم ينزعج أحد.

إلى أن جاء يوم وشربت خمرا لأول مرة بحياتي وخرجت مخمورا، وبدأت أكتب عن صفقات أخفاها المجلس الوهمي والسياسيون عن الشعب العراقي.

تأخرت في العودة إلى البيت ، ومع أني استعدت عقلي من سجن الخمر ، ولكني ولأول مرةٍ بحياتي أضعت الطريق وتهت بحارات بغداد ، أنا الذي حفظت حارات بغداد و الأنبار والموصل حارةً حارة تهت ، لم تكن مشكلتي إضاعة الطريق ، لكن لا أحد يصدق والكل يتفرج ضاحكا ويقولون التمثيل لا ينفع يا مستقيل ، المهمة تحققت أرشدني بختام الثالثة ليلا أحد القوميين لحارة قريبة من داري ، ودعني وعاد أدراجه ، مشيت بطريق مظلم لا ضوء فيه ، الترقب والخوف كانا يجثمان كبركان يحرق أعصابي ،كل شجاعة

تحليت بها يوما تخلت عني ، كنت أتحسس الموت في خطواتي ، واستذكر المهجرين القتلة والقوميين الفاسدين ، وأين أصبحت أمتنا بسبب أبنائها ، مشيت ولا قوة على المسير من التعب والخوف ، تذكرت كلمات الوعيد والتهديد من المتصلين ورحت أتوقع طريقة قتلي واغتيالي ، ربما طلق ناري من دراج عابر ، أو سكاكين تمزقني ألف قطعة كالعراق ، أو طائرة دون طيار ترميني بصاروخ ،، ولربما سقوني بالحانة السم .

ياآلهي، كم أشتاق للمرحومين أمي وأبي.

وفجأة باغتتني فكرة، ربما تمزقني كلاب شرسة لألف قطعة، ولم أكد أنتهي حتى مر شاب قربي، هو وقع أرضا من الهلع وأنا قلت الحمد لله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وسرت رجفة كالزلزال في كل أنحاء جسدي، لأتسلق شجرة ضخمة وكثيرة الورق كانت أمامي، وفعلا كانت كلاب الاحتلال من الشارلوا الشرسة قد مزقت وجه الشاب الآخر، ثم ابتعدت الكلاب بأمر مربيها ولكن سمعت أصوات تقول:

We want to know if he dead

تداركت الوضع وألقيت قميصي بعد أن مزقته بسكيني ، وملأته بدم الشهيد ، رحلوا وعدت في

الخامسة صباحا لبيتي ، وضبت قناعاً ولحية وشعرا مستعاراً وهوية أفغانية وقلت ساخرا بركات الملقب بالسيد زيفاً للإساءة لرجال الدين والعلم ، و اسمه الحركي أو شهرته ب ((حرب)) لهي أشد قرباً لطبع الدول الاستعمارية وسياستها في شن الحروب، وزرع للاستبداد ، وإلصاق التهمة بديننا الحنيف ، وأثناء مسيري كانت الجرائد والمجلات تنشر صورتي وأنا ميت وشعارا أخضر حسيني لإحدى الكتل النيابية الممثلة للمسلمين الشيعة ، فثار أبناء مذهبي في تكريت والأنبار و الأعظمية كرد فعل رسم وخطط له المحتلون طويلا ، لأنهم أرادوا للمسلمين السنة أن يزدادوا نقمة وأن تتحول نقمتهم على إخوتهم المسلمين الشيعة ، وفعلا ثارت تكريت فوجدت أميركا المناخ مناسبا وفرضت ما تريد على الحكومة التي تضم مقاولين وتجار ورجالاً قصيري النظر ، النفط العراقي مقابل السلاح والدعم المالي ، كي لا نسقط حكومتكم بالاقتتال الطائفي، تمكنت من التواصل مع رفاقي القوميين وتوجهت للشمال وتخفيت حتى تمت أوراق سفري باسمي وهويتي الحقيقية لدمشق .

مرسم عربي

دمشق ٢٠١٤

على حين غرة تملكني فضول كبير، لأعرف لما يقفل صابر تلك الغرفة، سألته عدة مرات لم يجبني، عاد من رحلة لإحدى ضواحي دمشق، فحضرت له الغداء وتناولنا الشاي سوياً أتحبني .... قال متبسماً: كان طبخك طيبا، كالعادة دائما تتهرب من الكلام العاطفي، حقيقةً لا أعرف سبب تهربي، لا أستطيع التعبير إلا بالأفعال، إذاً افتح لي تلك الغرفة ، قال : لكني سأفتح آلاف الجراح بفتح بابها ، قالت : أرجوك كن معي كما كنت دوماً رجلا لا غنى عنه ولا بديل له ، فتح باب الغرفة .

هللت: لله وأكبر! هذا كنز، لم أخفيته عني صمت، لم أعد أتطلعه لشيء سوى للوحاته بمختلف أساليب الرسم وعن شتى الموضوعات وكان هاوٍ للرسم الضوئي.

فمسحت الغبرة عن اللوحات بكى وبكى بكاءً أبكاني معه، طلب مني تركه، في المرسم، أغلق الباب على ذاته وبقي ساعاتٍ طويلةٍ في المرسم، وأخيرا خرج ليلا تناولنا العشاء ولم يزل صامتاً، قال لي: لوحاتي هذه بأسماء مناضلين استشهدوا معي بالعراق، فكل لوحة باسم ولن ارسم مرة

أخـــرى كـــي لا أســـتذكرهم، وهـــو مـــن لوحـــات المعرض السابق وقد رأتها ابنتك حنان.

لـم أشـأ حـواره مخافـة أن يتحـول رفضـه جـبلا لا يتزحـزح، وفـي الصـباح وبعـد الفطـور والشـاي، قلـت لـه أريـد طفـلا منـك خروجـا عـن الواقـع، قـال: كبرنـا ولسـنا قـادرين علـى الإنجـاب وأنـت لـديك أطفـال، قلـت: نعـم، صـحيح، ولكـن أولادك أجمـل، أتسـخرين منـي، مـا عـاذ الله يـا حبيبـي، قـولي لـي إذا مـن أولادي؟ لوحاتـك، آه سـبحان مـن حبـاك هـذه الموهبـة، أنـت تسـتطيع النضـال برسـمك، ألا تحـب سـورية، رد: سـيحبها كـل إنسـان متحضـر ومثقـف وأصـيل فكيـف بقـومي عربـي مثلـي، فليكن معرضـك كرمـى شـهداء الجيـوش العربيـة السـورية والعراقيـة واليمنيـة واللبنانيـة والمصـرية، ألا يسـتحقون مـن ابـنهم هـذه الهديـة! سـأفكر بلوحـات جديـدة ولكـن المشـكلة بالمرسـم ، أنـت ارسـم وأنـا أتكفـل بالمرسـم ، حسـنا ، كنـت سـعيدة وتلمسـت السـعادة فـي حياتـه ونشـاطاته بعـد هـذا الحـديث ، بـدأ يرسـم مـن بـاكورة الصـباح حتـى المسـاء ، بأكـل قليـل وخـروج أقـل وصـمت شـبه مطبـق وخلافـا للراسـمين ارتـدى بدلاتـه الرسـمية أثنـاء رسـمه ، كنـت أسـمعه يتحـدث مـع لوحاتـه وحـين أطـرق البـاب يقـول لـي بلطـف بـالغ، مشـغول سـيدتي ، وكأنـه باجتمـاع رسـمي

،بـدأت أخـاف أن يجـن ، ولكـن تمالكـت نفسـي مخافـة أن يقـف عـن الرسـم ، فالطبيـب قـال لـي ، مـا يطيـل العميـل المـريض ويخفـف ألمـه العمـل المنسـجم وتطلعاتـه ورغباتـه ، واسـتمر رسـمه وطالـت أيـام الاعتزال .

وذات مسـاء أبلغنـي بنهايـة لوحاتـه، فقـال لـي: أيـن سيكون المعرض، فـي مكـان يسـحب هويتـه علـى كـل المعـرض واللوحـات والرسـام وحتـى الجمهـور، أيـن: قلـت لـه فـي بيتنـا العربـي هـذا، ابتسـم يـا لـك مـن لصـة أفكار، أعجبتني الفكرة.

أزلـت الكثيـر مـن الأشـياء وفرشـت أرض الفنـاء بسـجادات فارسـية عريقـة، وعلقـت فـوانيس تضـيء لـيلا وبغالبهـا نحاسـية، كنـت اشـتريها ليكـون معرضـا مشـرقيا بامتيـاز ، ومـن ثـم جهـزت لكـل كلمـة جـدار مـن الجـدران الثلاثـة ، وطـن علـى الجـدار الشـامي المؤلـف مـن سـورية الطبيعيـة بكـل أقطارهـا ،وشـرف علـى الجـدار العراقـي واليمنـي ، وإخـلاص علـى الجدار المصري الجزائري.

وعلـى البـاب لوحـة بـالخط العربـي كتـب عليهـا معـرض الياسـمين الدمشـقي يرحـب بكـم، وجـد صـابر بعملـي وطنـا عربيـا تمنـاه ولـم يحققـه، ولكنـه فـرح وأخبرنـي بأنـه يكفـي الإيمـان بأمـة عربيـة واحـدة فـي

هـذا الظـرف القاسـي الـذي تتعـرض لـه الأمـة العربية.

علـق عـدة لوحـات مـن البيئـة الشـامية علـى الجـدار الشـامي، أهمهـا لوحـة وضـعت علـى أرضـها أعـلام الـدول العربيـة كلهـا، وعلـى الأعـلام بنيـت كنيسـة القيامة والمسجد الأقصى والكعبة والمسجد الحرام.

الأعـلام تقـول كـل الأقطـار فـداء للمقدسـات ، لأن مـن لا مقـدس لـه أو عنـده فـلا وطـن لـه، وأمـا القبلتـان الأولـى والثانيـة لتخبـر كـل مـن يحـج لـبلاد الحـرمين الشـريفين أن مـن لا قبلـة أولـى لـه فـلا ثانيـة ، وأمـا الكنيسـة فللقـول أن العـرب مسـيحيون بقـدر مـاهم مسـلمون وكنـائس عـراقتهم وإيمـانهم تشـهد، ومحفـوف طـرف اللوحـة بشـتلات الياسـمين للترحيـب بـزوار الجمـال بكـل تجلياتـه ومعانيـه فـي أرض العـرب ، وأمـا الجـدار العراقـي اليمنـي فاللوحـة الأجمـل، كانـت لوحـة تبـرز نهـري الفـرات و دجلـة كطرفـي عـين وتبـرز بغـداد كحدقـة سـوداء جميلـة وتنتهـي اللوحـة بسـد قـديم كتـب عليـه ، مـن بغـداد لسـبأ نفـط العـرب للعـرب ، أمـا اللوحـة الثالثـة علـى الجـدار المصـري الجزائـري كانـت محيـرة ، إذ كتـب رقـم مليـون بـالأحمر تحـت الأرض وعلـى سـطحها الأهرامـات وجعـل النيـل شـلال دمـاء يصـب

في الجزء الأحمر من العلم المصري ، وكأنه يقول دم المليون شهيد فدى مصر والأهرام و لولا دماء الشهداء لما كانت مصر ولا الجزائر ، والنهر ربما أراد به تخليد ذكرى الرجل الكبير جمال عبد الناصر الذي دعم الثورة الجزائرية ، فكان للمصريين والجزائريين مجرى واحد النضال والعروبة.

أما اللوحة الحمراء التي فيها نجمة على تلٍ مرتفعٍ، لتؤكد للمغاربة الأبطال الذين استشهدوا على هضبة الجولان في الدفاع عن شرف أمتهم، أنَّ الأمة لم ولن تنسى تضحياتهم.

حصد جوائز كثيرة، ونال تبريكات كبيرة فوق ما تمنى وتوقع، وأبرز لوحاته ملاك يتلقى من عراقة الشام وعنفوان ماضيها وساماً فيه أسماء من أبطال العرب ويسمي النجمات بأسمائهم، لكأنه يقول دمشق مختارة الله لقيادة حرب الأمة على شيطان للاستبداد التدميري، انتهى المعرض، فدخل غرفته لينام ومن ثم استيقظنا صباحا ليكمل لي قصته من حيث توقفنا.

محاولة يائسة

(الأعمى ليس من فقد البصر، بل من فقد الضمير)

حاولت بعد نجاتي من محاولة الاغتيال ، إيضاح أني على قيد الحياة وأن المسلمين الشيعة إخوة لنا وليسوا أعداء وأنهم من أنقذوني من الاحتلال الأمريكي ، ومارست بكل الطرق ضغطا على العشائر العربية المسلمة لوقف مسلسل تحميل دمي للعرب المسلمون الشيعة ، فقالوا عبر قنوات بعض الدول الحليفة لأميركا أن الاحتلال أنقذني ، وكم حاولت إيضاح الحقيقة وفشلت فمن غذى زيف الادعاءات الأمريكية والباطل الأعرابي، لم يكن أحدا غريبا ، حتى أن متشددين كثراً من المسلمين الشيعة ، اعتبروا إنقاذي من المسلمين الشيعة خطأ كبيراُ لينفخوا في الفتنة ويزيدوا من قوتهم وزعامتهم وأموالهم وليخمدوا ما تبقى من أصوات وطنية وعلمانية ، تقف بوجه مطامعهم للسيطرة على العراق كله .

أبلغني الأمريكيون أنهم لا يريدون قتلي ، وأنهم تركوني أقول وأفعل ما أشاء لأعرف أن المنطقة لها مدير واحد هو الأميركي، وأن القوميين بعد رحيل شخصياتهم الاستثنائية وكوكبة قياديهم ، انتهى دورهم للأبد في المنطقة ، وأن علينا أن

نجهز أنفسنا لحرب طويلة مع العملاء ، الذين سيكونون في كل الدول الإسلامية وبخاصة العربية منها وبكل الطوائف فالتشدد كارثة في كل مكان وزمان ، ولا تخلو دولة أو طائفة أو طريقة من متشددين ، والفرق يكمن بين من يوقف تمددهم من داخل دولتهم وبين من يفسح لهم المجال ليمثلوه، لنقع فريسة اقتتال طائفي وداخلي يحرفنا عن قضيتنا الأساس فلسطين ، ولنتبادل كيل الاتهامات فيم بيننا ، لنخرب التلاحم الشعبي ، بعد أن دمرنا التلاحم الثوري بيننا كقياديين فبدأت ليلا العمل على تجهيز أموري لأرحل، مع علمي المسبق أن الأمريكيين لم يعودوا مقتنعين بضرورة قتلي فالقضية التي أناضل لأجلها تم تصفية أهم أجزائها ألا وهو حرمة الدم ووحدة الوطن وسلامة المقدسات، محاولين تسليط الضوء على قضية مكافحة التشدد الذي يعتبر أخصب بيئة للإرهاب وكأننا لم نعش سبعة آلاف عام مع بعضنا البعض.

رحيل شخص واستمرار قضية الأمة

(لا حرية قبل الموت فالموت مغامرة لا شاطئ لنهايته)

دمشق ٢٠١٥

نجحت بالحصول على تأشيرة بعد عام لدمشق فوصلتها عام ٢٠٠٩، واشتريت بمالي بيتا عربيا سكنت فيه ، وآخر لمن تبقى من إخوتي بعد وفاة والدي ، ولكن أموالي انتهت وبت على باب الفقر، ولكني تمكنت عام ٢٠١٠ من بيع لوحة مدارات الرؤية بمليون دولار ، وذلك بمساعدة أصدقاء ، أمنوا لي مكانا بدبي لعرض لوحاتي وبيعها ، وقتها قابلت ابنتك حنان وأما الباقي فصار بين يديك وكله تعرفيه ، صمت فقد استبد به الألم ، ولكنه لا يريد أن تعرف تراجع صحته فتصاب بحمى الخوف عليه ، فقد أبلغه الطبيب بقرب علامات الموت التي باتت تتحقق كاملةً، ولكنه أخفى عنها.

سقط مغمى عليه، فأدخلته المستشفى، ولكنه أصر على أن يعود لبيته العربي وليموت فيه بحسب ما قال من يموت في دمشق لا يموت غريبا ولكن بيتي الثاني هو العراق.

جلس على فراشه مصفر اللون وضعيفا وتشوب عيناه ذكريات رغم صمته تبدو وكأنها ناطقة،

جاءت له بلوحة وألوان كما طلب منها، قال لها، البيت العربي وأثاثه ملك لك، وجوربي وحذائي للشحاذ البخيل في الحارة، وسلاحي للسوري الواقف عند مدخل الحارة لحمايتنا، واللوحات ستبقى لك تصرفي فيها كيف تشائين، لكن لا تتخلي عن نشر قصتنا، ثم استأذنته ودخل القسيس والشيخ ليقرأ عليه آيات الوداع، فقال لهما، تبا للشيطان لولا ضعف عقل النساء لما دخلتما بيتاً في الأرض.

قال له الشيخ على انفراد موشوشا في أذنه، لا تدخل نصرانيا أخشى عليك النار فأجابه: لا تخف هناك كاهنة جميلة قادمة، لعلك تتزوج المرأة الخمسون في عامك هذا، غضب الشيخ ورتل سورة يس وجلس قليلا ليأخذ أجره، وطلب منه القسيس أن يخرج الشيخ، فأخبره صابر هازئا، أهذا هو وداعكم؟ سحقا لكم يا خناجر إبليس! أنتم أعداء مستقبل وحدتنا، وظل يرسم ولا يسمع إلا موسيقى عبد الوهاب ويدندن، حتى دخلت فأمسك بيديها وفاضت روحه بسلام.

لقد كان موته أجمل لوحات العروبة والإنسانية مسلم عراقي يموت بجوار زوجته الحبيبة المسيحية العراقية، عربيان اختلف أسلوب

نضـالهما ولكـن الغايـة وحـدت دربهمـا، مـن دينـين مختلفـين ولكنهمـا تنـورا فارتفعـا بالإنسـانية لتـدنو مـن سـمو الرحمـة الإلهيـة، صـحفية تحـرر بقلمهـا ملايـين العقـول ومقـاوم يحـرر ببندقيتـه الجبنـاء مـن سـباتهم، تجمعهمـا دمشـق وتـأوي حلمهمـا دبـي وتسـلم عليهمـا بيـروت، وتقرأهمـا القـاهرة، ليكونـا بقصـتهما سـفراء النضـال المقـدس لتحريـر الإنسـان العربـي قـدس الأقداس من عقدة الجهل.

ذكريات مكتوبة

(في كل طائفة متعصبون ومتزمتون، ولكن لا يمكن لطائفة شريفة أن تحكمها هذه النماذج)

فتحـت دفتـر ذكرياتـه الـذي كـان يمسـك بـه ويشـده علـى صـدره ، وقـد سـقط مـن يـده التـي صـافحت الأرض لآخـر مـرة ، كانـت كتابتـه عصـرا عربيـا جديـدا لفهـم الفـتن التـي أحاطـت بمنطقتنـا وأمتنـا ، فمـن كتاباتـه التـي اسـتوقفتني: أن العـرب صـدروا للعـالم أعلـى درجـات الرقـي ألا وهـو الفكـر الـذي أبـدع الإنسـان فـي ظلـه نـورا وعلمـا وأدبـا وبفكـرهم نـوروا العـالم ليعـود فكـرهم بعـد قـرون مـن الفـرس والأفغـان والأمريكـان وسـواهم خنجـراً حاقـداً يـذبحهم فـي أرضـهم ، بينمـا صـنعت أمـم حواسـباً وأجهـزة الكترونيـة تحـد الفكـر وتنشـر ثقافـات

استهلاكية لا إبداع فيها إلا للكرش والفرج ولكنها لم تعد عليهم بالذبح كما عاد علينا فكرنا.

لماذا نقبل أن يأتي عميل جاهل لا لغته عربية ولا أخلاقه إنسانية، ثم نروج له ليحكمنا، هل هو أدرى منا بدينٍ خرج من جزيرتنا العربية وبلغتنا؟

إنني لأعجب أشد العجب لمن ينظر لطائفتي ولا يهتم بسلوكي وكأن ما ورثته بدون اختيار أهم مما أفعله باختيار وحرية كاملة، فالذبح ليس المشكلة بحسب هؤلاء الفاقدين لأصالة الفكر بل طائفة الذابح والمذبوح وكأننا لا نتحدث عن أمة قال أعظم كتبها القرآن عن القتل (من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا)

إن الذين أيدوا قتلة ومتشددي ومتعصبي طوائفهم عاد الشر عليهم أضعاف ما كان سيحل بهم فيما لو واجهوهم، وها هو البابا شنودة يقول: (إذا جاءت أمريكا لحماية أقباط مصر، فليمت الأقباط ولتحيا مصر)، إن الفرق بين طائفة تحارب العملاء وأخرى تجعلهم ممثلين لها هو كالفرق بين قصة الشوكة والوردة.

قالت الشوكة للوردة: ما داسني أحد إلا وأدميت قدمه

فقالـت الـوردة للشـوكة: والله لـو داسـني أحـد لقتلـت نفسي

إن الفـــارق هـــو ثـــلاث كلمـــات: كرامـــة وشـــرف وأخلاق...